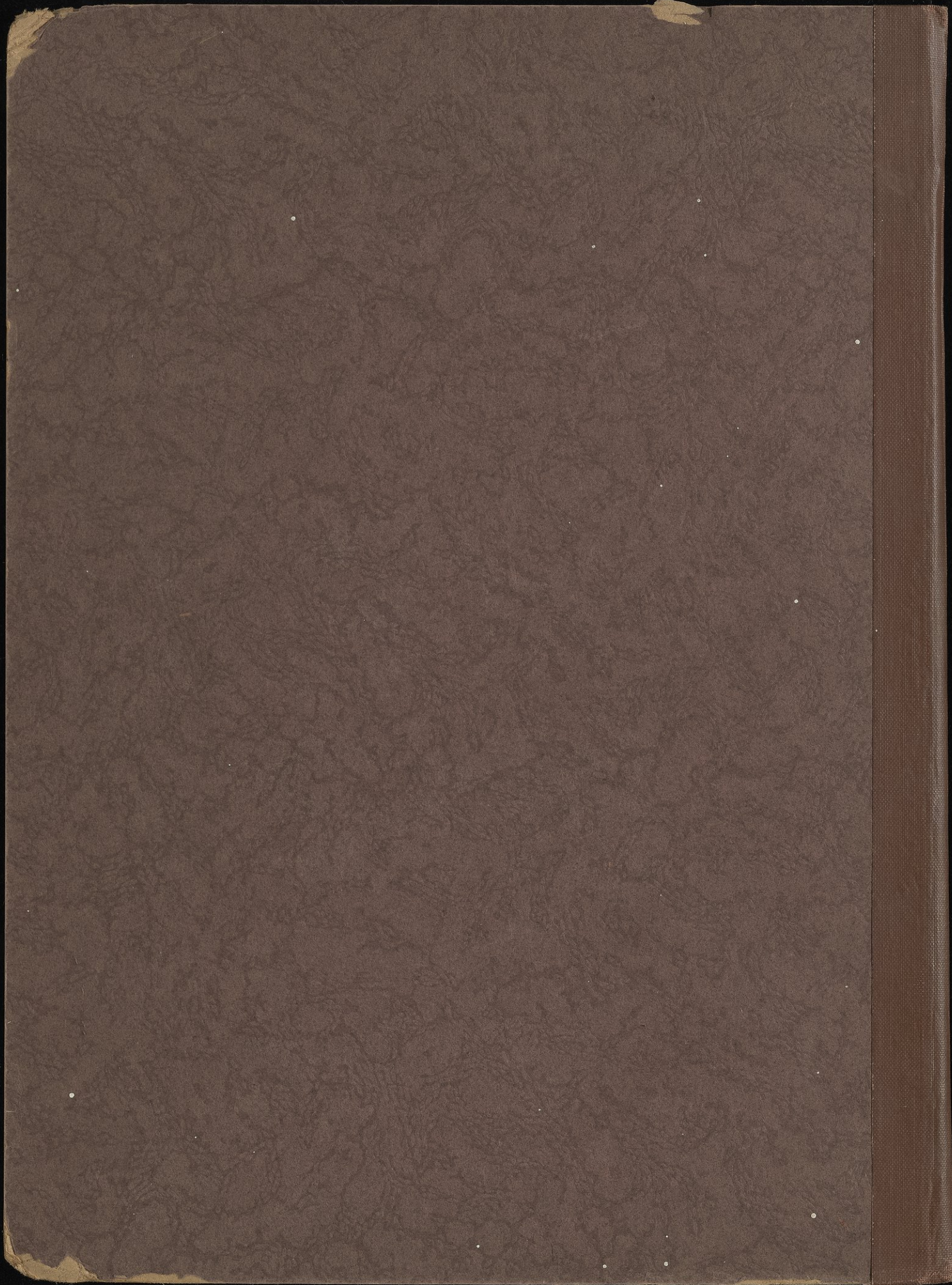




GAYLAMOUNT
PAMPHLET BINDER
~
Manufactured by
GAYLORD BROS. Inc.
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





5



كلية الآداب

A 57

ثورات البربر في افريقية والأندلس

بين سنتي ١٠٢ - ١٣٦ هـ (٧٢١ - ٧٥٣ م)

بقلم

الدكتور حسين مؤنس

نصالة من مجلة كلية الآداب

العدد العاشر ، المجلد الأول - مايو سنة ١٩٤٨

مطبعة جامعة فؤاد الأول

١٩٤٨

893.716
M925

11-15-1985
SB

Ms. 15, 1455 SB

ثورات البربر

في إفريقية والأندلس

بين سنتي ١٠٢ - ١٣٦ هـ (٧٢١ - ٧٥٣ م)

للكاتب صبيح مؤنس

أتم العرب فتح المغرب حوالي سنة ٨٢ هـ. بعد أن قضى تمهيد حسان بن النعمان على مقاومة الكاهنة وأنصارها، وبدأوا يضعون لهذا القطر الفسيح نظامه الأسلامي الجديد ، بعد قرابة سبعة وستين عاما من الحرب والكفاح مع الروم تارة ومع البربر تارة أخرى . ولا نزاع في أن حسان بن النعمان كان قادراً على أن يوجه السياسة الأسلامية في المغرب توجيهاً حسناً ، فقد وضع من القواعد الادارية والنظم العمرانية ما كان كفيلاً — لو استمر — بأن يهيء للمغرب الاستقرار المنشود بعد عصور طويلة من الاضطراب والحروب . ولكن الظروف لم تمهل حسان إلا قليلاً ، لأن عبد العزيز بن مروان عامل مصر لأخيه عبد الملك كان يطمع في المغرب لنفسه ، وكان لا يستريح إلى حسان ، فلم يزل به حتى عزله في أواخر سنة ٨٥ هـ ، واستبدل به مولاة موسى بن نصير .

ولا نزاع في أن موسى كان رجلاً نشيطاً قادراً ، ولا نزاع كذلك في أنه كان محارباً ماهراً ، استطاع أن يقود جيوش المسلمين في حروب موفقة في المغرب أولاً ثم في الأندلس فيما بعد ، ولكنه لم يكن بالمنظم الدقيق ولا الخبير بسياسة الشعوب ، فبدلاً من أن ينفق وقته في المغرب في تنظيم أمور البلاد وكسب قلوب أهلها للدولة الجديدة والدين الجديد ، مضى يحارب البربر ويرميهم بالجيش بعد الجيش حتى روعهم وشككهم في مرامي الحكم الأسلامي .

وانصرفت همته إلى المغانم والسبي، وأسرف في ذلك إسرافاً أنكره منه العرب أنفسهم^(١)، وربيع منه البربر فجعلوا يتركون مساكنهم ويتهاربون أمامه، واضطر معظمهم إلى الاستئمان وبذل الطاعة عن رهبة ومضى على ذلك هو وبنوه عبد الله وعبد العزيز مروان وكبار رجاله قرابة السنوات العشر أصابوا خلالها من المغانم والسبي ما لم يسمع المسلمون بمثله قبل ذلك وما فاق ما غنمه المسلمون من فارس وغيرها من الأقاليم التي فتحت خلال القرن الأسلامي الأول. وعاد موسى إلى المشرق في أواخر سنة ٩٥ هـ. وأقام ابنه عبد الله بن موسى في المغرب أميراً مكان أبيه، فمضى على سيرته حتى ضج أهل البلاد، وبدأت نفوسهم تميل إلى الثورة، فعزله سليمان بن عبد الملك وولى مكانه محمد بن يزيد القرشي^(٢) وحذره من سياسة العسف والأرهاق التي سار عليها آل موسى ورجالهم، وقال له: «يا محمد! اتق الله وحده لا شريك له، وقم فيما وليتك بالحق والعدل، فاللهم اشهد! ^(٣)» وهي وصاة تدل على أن سليمان كان يشعر تمام الشعور بأن آل نصير قد ساروا في المغرب بسيرة لا تحمد مغبتها، وأنه كان يريد أن يوجه حكم البلاد توجيهاً جديداً. ولم يستطع محمد بن يزيد أن يصلح من الأمر كثيراً لأن مساواة آل موسى كانت قد غرست في نفوس البربر لوناً من النفور من الدولة الجديدة جعلهم لا يكادون يطعنون إلى أحد، ثم إن ولاية محمد بن يزيد لم تطل، فعزل عن البلاد بعد عامين (٩٧ — ٩٩ هـ) لم يكف خلف خلاهما في البلاد أثراً يذكر^(٤).

ولم يستطع أحد من خلف محمد بن يزيد من عمال بني أمية إزالة هذا الأثر السيئ أو توجيه الحكم الأسلامي في المغرب توجيهاً حسناً لعدة أسباب: أهمها

(١) «حدثنا عبد الملك بن مسلمة.. أن موسى بن نصير حين غزا المغرب بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف، وبعث ابن أخيه في جيش فأصاب مائة ألف... فلما أتى كتابه بذلك (إلى الوليد) قال الناس: ابن نصير والله أحق! من أين له عشرون ألفاً يبعث بها إلى أمير المؤمنين في الخمس؟»

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٠٤، النويري، نهاية الأرب، ج ١ ص ٢٢ — ٢٣

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج ١ ص ٣١

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٤

أن الخلفاء اعتادوا من عمال إفريقية كثرة الهدايا والألطف والأموال ، ولم يستطيعوا الامتناع عن الالحاح على العمال في طلبها ، وأن أمر الأمويين في المشرق أخذ يضطرب بعد خلافة عمر بن عبد العزيز ، ولم يعودوا يستطيعون الاشراف على أمور الحكم في الولايات الاشراف الواجب ، وأن الحروب الأهلية في المشرق بين بني أمية والزيريين والخوارج قدامتد شررها إلى الولايات ، إذ كان أعداء بني أمية يفرون إلى الولايات — المغرب والأندلس خاصة — ويجتهدون في إثارة قلوب أهلها على بني أمية وتأليبهم على الدولة الأموية ، وأن فتح الأندلس على يد البربر خاصة قد رفع روحهم المعنوية وأظهرهم على قوة أنفسهم ، فلم يعودوا يحتملون من العرب عسفاً ولأسوء إدارة . واجتمعت هذه العوامل كلها وأخذت تدفع البربر إلى الوثوب على العرب دون أن يفتن هؤلاء إلى هذا التطور النفسى الخطر الذى كان يجرى في إفريقية مع توالى السنين .

وكان طبيعياً بعد ذلك أن تندلع نيران الثورة في المغرب كله بعد سنوات ، وكان طبيعياً أيضاً أن يكون اندلاعها من القوة والشمول بحيث امتدت كالنار في الهشيم من طرابلس إلى البرانس ، ولم يستطع العرب وقف تيارها رغم ما بذلوا من جهود ، وانتهى الأمر بعد كفاح طويل إلى لون من الهدنة بين العرب والبربر في نهاية العصر الأموى . نقول هدنة ولا نقول هدوءاً ، لأن الواقع أن العداوة ظلت قائمة بين الحيين ، ولم تخمد نيرانها ، حتى انتهت بخروج المغرب عن طاعة الدولة المركزية جملة في عصر الأغالبة .

لهذا لا غرابة أن تكون ثورات البربر في العصر الأموى التى سنفصل أمرها في هذا البحث أولى حوادث أربعة هي أبرز ما وقع خلال عصور المغرب العربى الذى سينتهى سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠ م بقيام الدولة الموحدية البربرية الخالصة ، وقيامها يبدأ عصور المغرب البربرى الاسلامى التى لم يعد للعنصر العربى خلالها في المغرب أى سلطان سياسى .

أما الحوادث الثلاثة الأخرى فهى : قيام دولة الأغالبة سنة ١٨٤ / ٨٠٠ م ، وقيام الدولة الزيرية سنة ٣٦٢ - ٣٧٤ ، ثم الغزوة العربية الهلالية حوالى سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣ م .

توفي سليمان بن عبد الملك في صفر ٩٩ (أكتوبر ٧١٧)

عمر بن عبد العزيز يحاول إصلاح أمور المغرب والأندلس

وخلقه عمر بن عبد العزيز ، فبدأ المغرب والأندلس في خلافته عهداً جديداً ، شأنهما

في ذلك شأن بعض الولايات الإسلامية الأخرى ، بسبب ما امتاز به عمر من الاخلاص في أمور المسلمين والعناية بشئون دولته والحرص على تخير العمال الصالحين القادرين على النهوض بالولايات .

ولم يقدم عمر شيئاً على إصلاح ما أفسده أسلافه من الأمويين . في نواحي المشرق ، واشتغل بذلك عن أمور المغرب والأندلس عاماً وثمانية أشهر ، فلم تتح له الفرصة للنظر في شئونهما إلا في رمضان سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ - ٧١٩ م ، فأقام اسماعيل بن عبيد الله على إفريقية^(١) والسمح بن مالك الخولاني على الأندلس ، وكانا من أفاضل عرب إفريقية ، وكان فضلهما قد ظهر قبل ذلك في مناسبة يذكرها معظم رواتنا ولا تخلو من معنى : فيذكرون أن عادة خلفاء بني أمية كانت قد جرت بأن لا يدخلوا خزائنهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم الا اذا شهد عشرة من عدول أهل العسكر في الولاية بأن هذا المال هو المستصفي الحلال لبيت المال بعد دفع أعطيات جندها والأوراق على مصالحها وشئونها . فلما أقبلت أموال إفريقية في أحد أعوام خلافة سليمان ، أقبل معها عشرة من العدول تخيرهم الوالي ، وكان فيهم اسماعيل بن عبيد الله والسمح ابن مالك الخولاني ، خلف الثمانية الآخرون على صحة هذا المال وحلاله ، وأما السمع واسماعيل بن عبيد الله فأبيا أن يحلفا ، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً ذلك المجلس ، فأعجبه موقف الرجلين وضمهما الى نفسه ، وادخرهما الى وقت يحتاج اليهما فيه ، فلما صارت الخلافة إليه ، واتسع وقته للعناية بشئون الغرب الإسلامي أقام اسماعيل على المغرب وأقام السمع على الأندلس^(٢) . وهي رواية تدل على صحة ما كان يُتهم به ولاة إفريقية للأمويين من سوء التصرف

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣١ - ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢٢ - ٢٣

في أموال البلاد وارهاقهم أهلها بالمغارم والجبايات واسرافهم في مقادير ما كانوا يرسلونه الى دمشق من الأموال والألطف (١).

تذهب المراجع الى أن عمر بن عبد العزيز كان
عمر بن عبد العزيز والاندلس
يفكر في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها
منهم ، « إذ خشي تغلب العدو عليهم فيها » كما يقول ابن القوطية (٢) ، أو « لا تقطاعهم
من وراء البحر عن المسلمين » كما يقول صاحب فتح الأندلس (٣) وصاحب
الأخبار المجموعة (٤) . ولسنا نجد تفسيراً معقولاً لهذه النزعة من خليفة عُرف
بالحرص على نشر الاسلام وتوسيع رقعته ، لأن حال المسلمين في الأندلس كانت
في إقبال الى ذلك الحين ، ولم يكن الأعداء قد نهضوا لهم على الوجه الخطر
الذي سيعرفه المسلمون فيما بعد ، ولم تكن فتنة العصبية قد عصفت بهم وأغرقتهم
وأضعفتهم ، بل لم يكن جند المسلمين في الأندلس وما تلاها قد أصيب بهزيمة
واحدة . وربما جاز تعليله بأن عمر لم يكن يعلم شيئاً من عظمة الأندلس
واتساع مداها واستقرار أمر المسلمين فيها وما كسبوه من فتحها وما يعود على
الدولة الاسلامية من أسباب الخير والقوة من بقائها في أيديهم ، ولهذا تذكر
المراجع أنه طلب الى السمع « أن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها
وبحارها » ، ولا يستبعد أن يكون أباح له إقفال المسلمين منها اذا وجد أنها
لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها ، « فكتب اليه السمع يعرفه بقوة
الاسلام وكثرة مداينهم وشرف معاقليهم (٥) » . فلما استوثق عمر من أهمية
الاندلس وثبات أقدام المسلمين فيها أولاها من عنايته ما هي أهل له .

وكان أول ما اهتم به عمر بن عبد العزيز هو ضبط أموال المغرب
والأندلس وتنظيم أمر خراجهما ، وهو أمر لم يكن به واحداً من سبقه من الخلفاء
فانتدب مولى من ثقافته يسمى جابر ، وبعثه في هذه المهمة الى الأندلس ، ولم

(١) الأخبار المجموعة ص ٢٣ — فتح الأندلس ص ٢٤ — ٢٥

(٢) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٢

(٣) فتح الأندلس ، ص ٢٤ — ٢٥

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣

(٥) ابن القوطية ، افتتاح ص ١٢ — ١٣

تحدثنا المراجع بشيء عما فعله في المغرب بهذا الصدد^(١)، ولسنا نعلم الأساس الذي سار عليه جابر هذا في أداء مهمته تلك في الأندلس، لأن النصوص تذكر أنه اهتم بتمييز أرض الصلح من أرض العنوة، وبأنه أراد أن يستخرج خمس العنوة لكي يضمه الى أرض الدولة، فلم يخرج في الخمس الا ربضاً من أرباض قرطبة جعله مقبرة للمسلمين « وأقر القرى بيد غنامها »، وهذه عبارة لا تفسر الا بأن جابراً اعتبر إقليم قرطبة هو الاقليم الأندلسي الوحيد الذي فُتح عنوة، فأخذ خمسة للدولة، وأما بقية الأندلس فأعتبره قد فُتح صلحاً.

ولما كنا نعلم أن معظم نواحي الأندلس قد فُتحت عنوة : الجنوب وأقاليم قرطبة وأشبيلية ومارده على الأقل — فكيف لم يزد خمس ذلك كله على ربض من أرباض قرطبة؟ ثم ما معنى قول المؤرخين انه « أقر القرى في أيدي غنامها »؟ على أي أساس تركها في أيديهم؟ ان لفظ « غنامها » هنا يسمح لنا بأن نفترض أن الحكومة المركزية اعتبرت ما فُتح من بلاد الأندلس غنيمته لمن فتحوه، فتركت كل ناحية بأيدي من فتحوها واستقروا فيها. اننا نفترض ذلك مجرد افتراض، ولا يمكننا ايراده على صورة مؤكدة، لأن عبارات المراجع قليلة مبتسرة غامضة، ولا تعيننا بأية صورة على تبين النظام الذي وضعه المسلمون للأندلس في ذلك الحين.

ويبدو أن السماح كان ماضياً في تنظيم البلد واحصاء أمواله، ولكن الظروف لم تمهله، لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تطل، وهو لم يول على الأندلس الا بعد أن انقضى منها نحو العام، وكان عليه الى جانب هذا العمل الإداري أن ينشط للغزوات في أحيائها، وكان عظيم المنفعة في الجهاد، فلم يلبث أن استشهد في طرسونة في يوم عرفه من سنة ١٠٢ هـ/٧٢١ م، فلم تتح له فرصة استكمال العمل الإداري الذي بدأه^(٢).

فاذا انقضت أيام الخليفة التقى العادل عمر بن عبد العزيز وواليه المجتهدين اسماعيل بن عبيد الله والسماح بن مالك الخولاني فقد عادت الأحوال في الغرب الاسلامي الى ما كانت عليه أيام سليمان ومن سبقه، وعاد حكام افرقية يستبدون

(١) ابن القوطية، افتتاح ص ١٢

(٢) الرسالة الشريفة، ص ٢٠٠—٢٠٣

بالأندلس ويولون عليه من الحكام من يشاءون، وعاد هؤلاء يصرفون أموره على الوجه الذى يحبونه . ولقد رأى الأندلس فى الفترة بين سنتى ١٠٢ و ١١٢ هـ / ٧٢٠ - ٧٣١ م ستة حكام لا نكاد نذكر لهم الا اهتماما ظاهراً بالحروب فيما وراء البرانس وانصرفا بالغا الى المنازعات العصبية العنيفة^(١).

وكانت ولاية افريقية خلال هذه الفترة كلها الى رجلين من كبار رجال بنى أمية هما يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج وخلفاء العصبية
وكانت ١٠٢ - ١٠٣ هـ / ٧٢٠ - ٧٢١ م وبشر بن صفوان الكلبي ١٠٣ - ١٠٩ هـ / ٧٢١ - ٧٢٦ م . وكانت خلافة المسلمين الى اثنين من أشد الأمويين اغراقاً فى العصبية القبلية هما يزيد بن عبد الملك ١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م ، وهشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م ، وفى عهدهما ظهر فى البيت الأموى الانقسام والتفرق اللذان انتهيا بضعاف البيت كله وذهاب ريحه ، فقد كان يزيد بن عبد الملك مضطرب الميول : أغضب يزيد بن المهلب وحاربه حتى قتله ، وتعقب اليمينية بألوان الأذى حتى نفروا منه ومالوا الى أعدائه ، وامتلات نفوسهم بالثورة عليه ، وعادت اليهم أحقاد مرج راهط وتحركت فى قلوبهم ثاراتها^(٢) ، وأقام على افريقية يزيد بن أبى مسلم هذا ، وكان من كبار القيسية ، فلما قتل أقام مكانه بشر بن صفوان ، وقوى جانب القيسية فى بلاد الدولة

(١) م عبد الرحمن بن عبد الله العافى من ذى الحجة سنة ١٠٢ الى صفر سنة ١٠٣ (من يولييه الى أغسطس ٧٢١) وعنبسة بن سحيم الكلبي من صفر سنة ١٠٣ الى شعبان سنة ١٠٧ (٧٢٦ - ٧٢١) ، وعذرة بن عبد الله الفهرى من شعبان سنة ١٠٧ الى شوال سنة ١٠٧ (من يناير الى مارس ٧٢٦) ، ويحيى بن سلامة العاملى من شوال سنة ١٠٧ الى ربيع أول سنة ١١٠ (من مارس ٧٢٦ الى يولييه ٧٢٨) ، وحذيفة بن الأحوص القيسى من ربيع أول سنة ١١٠ الى شعبان سنة ١١٠ (من يولييه الى ديسمبر ٧٢٨) ، وعثمان ابن أبى نسعة الحنظلي من شعبان سنة ١١٠ الى المحرم سنة ١١١ (الى أبريل ٧٢٩) ، والهيثم بن عبيد الكلبي من المحرم سنة ١١١ الى ذى القعدة سنة ١١١ (الى فبراير ٧٣٠) انظر ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٢٦ - ٢٧
والبحث الذى كتبه لافونتي اى الكاترا وذيل به ترجمته للأخبار المجموعة وحقق فيه ولايات عمال الاندلس .

LA FUENTE Y ALCÁNTARA ; Cronología de los gobernadores de España. Apéndice III de la *Ajbar Machūa*, pp. 220-242.

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ص ١٣٦ وما بعدها ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ص ٢٣ وما بعدها ، السعوى ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦

الاسلامية كلها ، فلما اقبل أخوه هشام بداله أن يخفف من غلواء القيسية المضرية بقبض يده عنهم ، ومن ثم أقام نقرأ من كبار اليمينية الكلبيية من أمثال خالد بن عبد الله القسري وأخيه أسد على الولايات ، فأخذوا يضطهدون المضرية اضطهاداً رضى عنه الخليفة وان لم يفعل فعلهما . ولهذا ترك بشر بن صفوان في ولايته لأن ميوله كانت كلبيية يمنية ، وحينما توفي بشر بن صفوان سنة ١٠٩هـ / ٧٢٦ م كانت ميول الخليفة قد انخرقت بعض الشيء عن الكلبيية اليمنية ومالت نفسه الى إضعاف أمرها ، ولهذا أخذ يولى بعض القيسية كبار المناصب ، فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق ونصر بن سيار خراسان وعبيدة بن عبد الرحمن السلمي إفريقية ، وكانوا جميعاً من غلاة القيسية ، فأخذوا يضطهدون اليمينية الكلبيية ، حتى ليزكر النويرى أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمي لم يكذب يصل إلى إفريقية حتى « أخذ عمال بشر ابن صفوان فحبسهم وتحمل عليهم وكان فيهم أبو الخطاب بن صفوان الكلبي ^(١) » . هكذا أخذت عواصف العصية تعصف بالدولة في القلب وفي الولايات ، ولم يقتصر الأمر على العمال ورجال الدولة بل تعداه الى عامة الناس ، لأن الجاليات العربية التي كانت قد هاجرت الى الولايات واستقرت فيها لم تخرج عن أن تكون قيسية مضرية أو كلبيية يمنية ، فإذا كان العامل قيسياً حابى القيسية واضطهد الكلبيية اليمنية وآذاها ، واشتبكت بينه وبينها الحروب ، وإذا كان كلبيياً عسف القيسية وأنزل بها من البلاء شيئاً كثيراً . ومن هنا قامت الحروب بين العرب في الولايات ، وتخصبت أراضى الدولة الاسلامية من خراسان الى أقصى الأندلس بدماء العرب ، وشغلتهم هذه الخلافات في كل ناحية عما هو أهم منها وأولى بالعناية من الأمور . ولم يشق بلد من بلاد المسلمين بهذه الخصومات كما شقى بها المغرب والأندلس ، لا لأنها كانت فيهما أقصى وأعنف ، بل لأن المغرب والأندلس كانا الى ذلك الحين بمثابة الثغر الكبير لبلاد المسلمين عامة ، وكان لابد لمن يقوم فيهما من العرب أن يكونوا كتلة واحدة بقطعة ، والانهض لهم العدو — الذى لم يقض عليه القضاء المبرم — واستعاد قوته ، وتحفز لقتالهم وهم في شغل عنه ، وهذا هو الذى حدث بالفعل :

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ — ٢١٦ ، النويرى ، نهاية الأرب ص ٣٣
وراجع تعليق فورنيل على هذه التغيرات العسية في الفترة الأموية :

H. FOURNEL, *Les Berberès*, I. pp. 270—271.

شغل العرب بتصفية ثاراتهم القبلية العصبية عن بقايا القوط في الأندلس ، وعن إتمام إخضاع البربر في إفريقية ، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها ، واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم وأن يمشوا أقدامهم في نواحيهم النائية ، ثم أخذوا يتقدمون على مهل منتهزين الفرصة في هؤلاء العرب الذين شغلهم قيس و كلب عن القوط والنصرانية والوثنية معا . وليس الى الشك سبيل في أن هذه المنازعات العصبية وحدها هي السبب في نهضة فلول القوط وتقدمهم لمنازعة العرب هذه المنازعة الطويلة التي انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة ، وأنها هي السبب في ثورة بربر المغرب جميعه على العرب ، لأنها أتت في وقت خرج كان المسلمون أحق فيه بأن يبذلوا قصارى جهدهم في إتمام فتح البلدين ، فعاقبتهم عن ذلك واضطرب الأمر عليهم فيهما جميعا .

كانت ولاية يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان
فترة سيادة الكلبيين البنيين
في المغرب والأندلس
في إفريقية كلبية يمنية صرفة ، وقد عُرف
الكلبيون البنيون بأسرافهم في العصبية على الموالي

في كل ناحية ، وحسبنا من ذلك الإشارة الى سياسة الحجاج وعسفه موالي فارس ، وكان يزيد بن مسلم تلميذه و كاتبه ^(١) ، فحسب أنه يستطيع أن يسير في البربر بسيرة الحجاج في أهل العراق وفارس ^(٢) ، وأخذ يعسف البربر ويشدد في جمع أموالهم وسبي نسائهم ، وكان شديد العناية بالطاف الخلفاء وكسب قلوبهم بالهدايا ، فصار يتخير أحسن نساء البربر ليعث بهن الى الخليفة ، وكان يأخذ المائة من الغنم ويدبحها ليأخذ فراءها العسلي الصافي ويرسلها الى دمشق فرمادج مائة شاة دون أن يستخلص منها جلداً واحدا سليما ، فتغيرت نفوس البربر ، وبدأت قلوبهم تتحدث بالثورة عليه ، لأن البربر كالعرب قوم بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلة ^(٣) .

وليس الى الشك سبيل في أن خلفاء بني أمية
لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبي مسلم
وبشر بن صفوان في إفريقية ، وأنهم لم يكونوا
يعلمون شيئا عن الوسائل التي كانا يلجآن إليها في عسف البربر والاستبداد بهم

مسئولية الخلفاء عن أعمال
عمالهم في المغرب

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ — ٢١٤ وأبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٧٢

(٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ٢١

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ وما يليها — النويري ، نهاية الارب ، ص ٢١ وما يليها .

ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حينما علم بقتل البربر واليه يزيد بن أبي مسلم ، وقال صراحة انه لم يرض عن عمله ، ثم أقر محمد بن ابن أوس الأنصارى الذى أقامه أهل افريقية على أنفسهم (١) .

وربما تبادر الى الذهن أن الخلفاء كانوا يكلفون العمال أن يكثروا من الهدايا والالطاف ، فكان العمال يضطرون لهذا الى الاسراف فى عسف الناس والاشتطاط معهم ، ولكن رواية لابن عذارى تدل على أن العمال يحملون أكبر جانب من المسؤولية فى هذا ، وذلك حيث يقول : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها الى عامل افريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسييات ، فلما أفضى الأمر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم — أو كلفوه — أكثر مما كان ، فاضطر الى التعسف وسوء السيرة (٢) » وهى رواية تدل على أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف افريقية فقط ، وأن العمال كانوا يتكلفون الاسراف فى عسف الناس طلباً فى المزيد من رضى الخلفاء .

وكان الكلبيون بطبعهم على جانب قليل من السياسة والكمياسة ، فأسرفوا فى الأمر إسرافاً نقر البربر ودفعهم الى الثورة . وشجعهم على المضى فى هذا العسف ما كان قائماً إذ ذاك بين العرب أنفسهم من عدا .

وكان وضع العرب فى بلاد المغرب بُعيد الفتح
توتر نفوس البتر — زناته
وضعاً فريداً فى ذاته ، فان بربر المغرب — على ما نعرف — ينقسمون الى بتر وبرانس أو الى بدو وحضر ، فأما البتر فقد تسارعوا الى الانضمام للعرب من أول الأمر واشتركوا معهم فى فتح البلاد ، ولولا مساعدة قبائل بترية مثل لواته ونقوسة وهوارة وبرغواطه (٣) ، لما استطاع العرب الوصول فى المغرب الى هذه النتيجة الباهرة التى وصلوا اليها

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢ — ٣٣

(٣) راجع النصوص الخاصة بانضمام هذه القبائل الى المسلمين من أول الأمر فى البلاذرى :

فتوح ص ٢٢٤ — ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ١٠٨ ، وانظر فتح العرب للمغرب ص ٢٨٢ وما يليها .

بعد جهد طويل متصل . فلما انتصر العرب واستقرت أقدامهم في البلاد توقع البتر أن يعتبروهم مساوين لهم ، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة ولم يُلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يُسوا من كل عون من ناحية البيزنطيين ، ولكن العرب لم يقطنوا الى ذلك ، ومضوا يعاملون البربر جميعاً معاملة واحدة ، واشتدوا عليهم جميعاً ، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافاً وغير أحلاف ، فتغيرت نفوس البتر — وزناته منهم خاصة — وبدأوا يفكرون في الثورة على العرب عامة . ثم ان البربر — والبتر منهم خاصة — حملوا معظم عبء فتح الأندلس ، وقتل منهم في هذا السبيل آلاف في حين لم يفقد العرب إلا بضعة مئات ، وكان نفر من قادة الفتح بربراً زناتين مثل طريف بن أبي زرعة وطارق بن زياد ، فلم يحسن العرب جزاء هذين ، بل أصاب موسى طارقاً بشتر كبير ، ولم ينظر عرب الأندلس الى بربرها نظر النذل لند ، فأنكر البربر ذلك وبدأت نفوسهم تتغير . وربما كان دافع عرب الأندلس الى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم ، فقد كان البربر في الأندلس أضعاف العرب عدداً ، وكان العرب يشعرون أنهم أقلية ، وكان شعورهم بهذا يدفعهم الى التحرز من البربر وابعادهم عن الحكومة والسلطان ، فزاد ذلك في سخط هؤلاء ؛ وكان البتر هم حرس الولاة المقربون اليهم ، وكان الولاة قبل يزيد بن أبي مسلم يميزونهم من البرانس ويتخذون منهم بطانتهم ، فلما جاء يزيد بن أبي مسلم أغفل هذه الناحية وأساء معاملة البتر وأراد إمتنانهم واذلالهم ، فنفرت نفوسهم منه ، وفقد العرب من ذلك الحين ولاء هذا الفريق القوي من بربر افريقية وسيكون لذلك أثر كبير في تطور الحوادث فيما بعد ^(١) .

وكان في افريقية الى جانب البربر والروم نفر كبير من الافارقة ، أى من الأجانب المستوطنين الذين طال مُكثهم في البلاد حتى أصبحوا افريقيين ، وكان معظم هؤلاء يسكنون المدن ومواقع

(١) لاحظ قول ابن عبد الحكم : « ويقال : بل كان حرس يزيد بن أبي مسلم حين قدم البربر ليس فيهم الا بترى ، وكانوا هم حرس الولاة قبله ، البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد ، فخطب يزيد بن أبي مسلم الناس فقال : انى ان أصبحت صالحاً وثمت حرسى في أيديهم كما تصنع الروم ، فأثم في يد الرجل البني اسمه وفي اليسرى : حرسى ، فيعبروا بذلك عن غيرهم ، فألقوا من ذلك ، ودب بعضهم الى بعض في قتله » . فتوح ، ص ٢١٤

الساحل ، وكانوا على علائق حسنة مع الروم متأثرين بحضارتهم ، وكان فيهم كثير من النصارى . ولما أقبل العرب وأنشأوا يحاربون الروم وقف هؤلاء الأفاارقة على الحياد بل أقبل نفر منهم على الاسلام ، وكانوا ينتظرون ألا يعتبرهم العرب روماً وألا يعسفوهم ، ولكن العرب وضعوهم والروم في منزلة واحدة ، فاعتبروا الأفاارقة موالي ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، فانقلبوا أعداء لهم ، واتصلوا بزنانته ، وتفاهم الحيان على الثورة ^(١) .

وزاد الحال حرجاً أن اشتداد بنى أمية مع دعاة الخارجية في المغرب العلويين والخوانارج أربهم ونفرهم من الشام والعراق وجزيرة العرب ، فمضوا يلتمسون الأمان حيثما وجدوه ، وفرّ منهم نفر كبير إلى المغرب حيث وجدوا أهله حائقين على الأمويين مستعدين للثورة عليهم ، فلم يكن أيسر على هؤلاء العلويين والخوانارج من كسب هؤلاء البربر إلى صفوفهم ؛ ووجدت مذاهب الخارجية — الصفرية والأباضية خاصة — قبولاً طيباً من البربر ، وهكذا تهيأت في بلاد المغرب كلها الظروف لثورة عامة كبرى على الأمويين والعرب عامة .

ويجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من أقبل إلى افريقية من هؤلاء الدعاة كانوا من الصفرية والأباضية ، واسمنا نعلم بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة في المغرب من هذين الفريقين من الخوانارج ، ولا السبب في إقبال أهل المغرب عليهما خاصة ، لأن مبادئ الفريقين ليست مما يجتذب البربر ، فهما أكثر الخوانارج ميلاً إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين ^(٢) ، بل الأباضية لا تحل قتال غير الخوانارج من المسلمين ولا تستحل من الغنائم غير السلاح

(١) يفهم من روايتين لأبى المحاسن والسلوى أن زعامة برابر طنجة في الثورة التي نتحدث عنها كانت الى ميسرة المطغرى وعبد الأعلى بن جرجج الأفريقى ، وكان مع كل منهما قومه ، مما يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوثوب بالعرب .

انظر أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٨ ، السلوى ، الاستقصاء ، ج ١ ص ٤٩

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل ص ١٦٨ — ١٦٩ ، البغدادي ، الفرق بين الفرق

ص ٦١ — ٦٢

والخيل ، والصفرية تكاد تكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالا ، والبربر على ما نعلم لا يميلون إلى الاعتدال في العقائد ، وسنرى من أحداث ثورتهم أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطا . وربما كان الأحجى أن نشك في نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والاباضية خاصة ، لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية ، ولسنا نجد على أى الأحوال في أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلا واضحا على صفرية القائمين بالحركة أو اباضيتهم ، والأسلم أن نسميهم خوارج فحسب ، خوارج سياسيين لا دينيين .

ولصاحب « الأخبار المجموعة » رواية يفهم منها أن البواعت البعيدة لهذه الحركة كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم ، وذلك حيث يقول : « وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقاً من سير عمالهم ، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية ، فتذبح مائة شاة ، فربما لم يوجد فيها إلا جلد واحد ، وهو قول البغض للأئمة ، فان كانوا صدقوا ، فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس ، اقتداءً بالازارقة وأهل النهروان ، أصحاب عبد الملك بن وهب وزيد بن حصن ^(١) ... » .

وظاهر أن صاحب هذا المجموع القيم من الأخبار يحاول الدفاع عن خلفاء بنى أمية لأنهم أجداد أموية الاندلس ، وليس إلى الشك سبيل في أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون خلفاء بنى أمية بالظلم ويحملونهم مسؤولية هذه الحركة الخطيرة .

ومهما يكن من الأمر فقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهداً عظيماً في إثارة البربر ودفعهم إلى الوثوب بالعرب . ومن دلائل ذلك قول المالكي : « وكانوا — أى أهل افريقية — يقولون : لا تخالف الأئمة بما تجنى العمال ، فقالوا — أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة — لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ! فقالوا : حتى نخبرهم ! ^(٢) » .

« خرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلاً ، فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ،

(١) الأخبار المجموعة ص ٣١ — ٣٢

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٣٠ (١) .

فاذا غنمنا ثقلهم ولم ينفلنا ، ويقول: هذا أخلص لجهادكم !.. ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون ! فأحببنا أن نعرف أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونقدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها الى وزرائه ، وقالوا : ان سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا الى افريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن الخبر ، فعرف أسماءهم ، فاذا هم الذين صنعوا ذلك^(١) » مما يدل على أن أهل افريقية أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين ، وجعل هؤلاء الدعاة يدفعونهم الى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذي ينزل بهم انما مصدره الخلفاء أنفسهم ، فأحب مبصرة — زعيم البربر — أن يتأكد من الأمر قبل أن يقدم على شيء ، ففضى في وفد من أهل بلده الى دمشق ليبسط ظلامته أمام الخليفة هشام ، فلم يستطيعوا مقابلته ، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة .

وكان الأندلس تابعاً لافريقية في ذلك الحين ، فلا غرابة
 العصبية العربية
 في الأندلس
 أن تظهر فيه أصداء ذلك كله ، ولا غرابة في أن يكون لها جميعاً
 أسوأ الأثر على مصائر الاسلام فيه للأسباب التي ذكرناها .

أقام يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان الكلبيان اليمانيان على الأندلس عملاً يمينين كليبيين هم عنبة بن سحيم الكلبي (صفر ١٠٣ — شعبان ١٠٧) وعذرة بن عبد الله الفهري (شعبان ١٠٧ — شوال ١٠٧) ويحيى بن سلامة العاملي (إلى ربيع الأول سنة ١١٠) ، وقد حكم ثلاثتهم سبع سنوات (شوال ١٠٧ — ربيع أول ١١٠) تعصبوا خلالها لليمنية الكلبية وأوغروا صدور القيسية ، وكانت قيسية الأندلس موعرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها ، لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزبيريين والمروانيين في المشرق ، بل كان منهم من حضر مرج راهط ورأى بعينه مصارع القيسية وأفول نجمها بهزيمة الزبيريين ، وكانوا ينتظرون الفرصة ليسوا حسابهم القديم مع اليمينين الكلبيين .

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٣٠ (١ — ب) وليس لدينا ما يؤيد ذهاب مبصرة الى المشرق ، ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية أن زعماء البربر حاولوا بسط شكايتهم أمام الخلفاء قبل أن يلجأوا الى الثورة .

فلم يكدهؤلاء الولاة الثلاثة يسرون في سياستهم اليمينية الكليبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألماً وجاشت نفوسهم بالثورة، وغدوا لا ينتظرون إلا الفرصة المواتية^(١). وكان هؤلاء الكليبيون كغيرهم من اليمينيين ذوى شره إلى الاموال وعسف في جمعها، وقد اشتد سحيم منهم شدة خاصة، فألزم النصارى في الاندلس بدفع جزية مضاعفة، فتغيرت نفوس أهل البلاد وبدأ القلق يسودها من كل وجه^(٢).

(١) أخبار مجموعة، ص ٢٤ — ٢٥.

Dozy, *Musulmans d'Espagne*, I. pp. 135, 599.

(٢) ايزودور الباجي، (مقدّم ٥٢) اسمه الكامل Isidoro Pacence وهو مؤلف وهمي يقال انه كان أسقفاً لمدينة Pace أو Pax-Julia وهي Beja الحالية من مدن البرتغال (باجه عند العرب) ينسب اليه تاريخ هام لاسبانيا اسمه:

Epitoma (epitome) Imperatorum vel Arabum Ephemerides atque Hispaniae Chronographiae sub uno volumine Collecta.

وهو يشمل تاريخ اسبانيا من أواخر العصر القوطي (من نهاية حكم سيرت الى نهاية حكم يوسف الفهري آخر عمال الأندلس للأمويين، وهو يضم معلومات هامة عن الدولة البيزنطية والدولة الاسلامية في المشرق خلال هذه الفترة. ولم يستطع البحث التاريخي الاهتمام الى حقيقة ازودور هذا أو الى نسبة هذا الكتاب اليه، ولهذا يفضل الكثيرون تسميته « بالتاريخ الطليطلي المجهول المؤلف El-Anónimo Toledano » لأن مخطوطته وجدت في طليطلة. والذي لا شك فيه هو أن مؤلف هذا المجموع الفريد من الأخبار كان واحداً من رجال الدين الاسبان، ولكنه يمتاز عن هؤلاء جميعاً باعتدال في الرأي وبعد نسبي عن العصبية الدينية التي نجدتها عند غيره من مؤرخي اسبانيا من رجال الدين. وروايته تزودنا بمعلومات قيمة جداً عن خلفاء الأمويين بالشرق وأعمال عمال بني أمية في افريقية والاندلس. ويفهم من نص روايته، ومن كتب أخرى معاصرة، أنه كتب كتباً أخرى هي:

1—Epitome Regum Wisigothorum a tempore Recaredi principis.

2—Epitome Temporum.

(مختصر تاريخ العصور) — وفيه يتحدث بالتفصيل عن الحروب التي جرت بين البربر وكثوم بن عياض عامل هشام بن عبد الملك على افريقية.

3—Epitome.

يقص فيه أخبار الحروب بين بلج بن بشر ومن معه من الشامية وبقية عرب الأندلس.

4—Liber verborum dierum Saeculi.

وهو يكل فيه ذكر الاحداث التي فاتته ذكرها في كتبه السابقة. وكتابه الأول هو أهمها من غير شك، وهو المشار اليه في التواريخ الأندلسية، وهو الذي نقصده نحن في هذا البحث. وظاهر أن مؤلفه أراد أن يجعل منه صلة لتاريخ ازودور الاشيلي San Isidoro de Sevilla نجد نصه الكامل عند:

THEODOR MOMMSEN, *Auctorum Antiquissimorum*, tomus XI, *Cronica* = *Minora*. (Saec. IV, V, VI, VIII) II, pp. 334-360 Berolini, 1893.

فلما تولى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي^(١) وكان قيسياً ، انقلبت
الآية وتوالت على الأندلس سنوات قيسية لقي الكلييون اليمينيون خلالها بلاء
شديداً ، قام بالأمر خلالها حذيفة بن الأحوص القيسي وعثمان بن أبي نسعة
الخنعمي ، والهيثم بن عبيد الله الكنانى ، ومحمد بن عبد الله الأشجعي ،
واستمرت حتى سنة ١١١ هـ ، وقد اشتد الهيثم مع اليمينيين شدة أثارهم ودفعتهم
إلى العصيان علانية ، وقد بلغ من شدته أن أنكر هشام عليه ذلك — رغم قيسيته —
وعزله وعاقبه عقاباً صارماً^(٢) .

ومن عهد الهيثم هذا تبدأ في الأندلس خصومة القيسية واليمينية الصريحة
الخطرة التي سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الاسلام في الأندلس خاصة
والمغرب عامة .

= وفى :

FLOREZ, *España Sagrada*, pp. 283-307, *Isidori Pacencis Episcopi, chronicon*.

ونشر أجزاء منه LAFUENTE Y ALCÁNTARA كملحق لترجمته الإسبانية للأخبار
المجموعة . ص ١٤٦ وما بعدها .
وانظر عنه :

LUDOLF SCHEVENKOW, *Kritische Betrachtungen über die lateinisch-
geschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch
die Araber*. 1894.

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozárabes de España*,
(Madrid 1867-1603) pp. 234 599.

CESAR DUBLER, *Sobre la Cronica Arabigo-Bizantina de 741 y la
Influencia Bizantina en la Peninsu'a Ibérica (Al-Andalus, vol. XI fase.
2 Madrid'Grenada, 1956) pp. 283-349.*

(١) أثار وصول عبيدة بن عبد الرحمن الى إفريقية اضطراباً كبيراً ، لأن الكليين كانوا
قد اطمأنوا الى السيادة في عهد سلفه بشر بن صفوان ، وكان معظم عرب إفريقية والأندلس
كليين يمينيين كاذكرنا ، وكان بشر قد ترك مكانه كلياً ، فلم يكده يستقر في الولاية حتى فجأه
هشام بعبيدة بن عبد الرحمن ، ودخل عبيدة القيروان فجأة ، كما أنما كان يتوقع معارضة ومقاومة ،
ولم يقدم شيئاً على عسف اليمينيين عسفاً جاوز الحد المألوف .

انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٣٦ ، النوى ، نهاية الارب ج ١ ص ٦
ابن الابار : الحلة السيرة ص ٤٧ — ٤٩ ، ابن الأثير ، الكامل ج ٥ ص ١٠٨ ، ١٣٠

(٢) ابن زودور ، فقرة ٥٧ — ابن الأثير ، الكامل ج ٥ ص ٦٨ ، ٧٤

بيد أننا ينبغي أن نذكر أن المسلمين كانوا معينين خلال ذلك كله بالحروب فيما وراء البرانس ، فقد استمرت جهودهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولاني ، ووصلت جيوش المسلمين في أيامهم إلى قريب من أفينيون ، وكانت أربونة عاصمة الهيثم بن عبيد الكناني يقيم فيها معظم وقته ^(١) .

ولسنا نجد ما نسجله في عهود هؤلاء الحكام القصيرة إلا ثورة بلاية زعيم فلول القوط في نواحي أشتريس ، وهي ثورة خطيرة تعيّن بدء المقاومة الاسبانية ، وقد وقعت في عصر عنبسة بن سُحيم ^(٢) .

وفي صفر سنة ١١٢هـ / ٧٣٠م أقام عبيد الله بن الحجاج السلمي عبد الرحمن ابن عبد الله العافق أميراً على الأندلس ، وكان عبد الرحمن من كبار رجال جند الأندلس ، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغازي الأعداء فيما يلي البرانس ، وكان الجند قد أقاموه والياً على الأندلس قبل ذلك مدة لم تزد على شهرين قبيل قدوم عنبسة بن سُحيم ، وكان عبد الرحمن شخصية أندلسية قضى معظم أيامه في نواحيها وفي الجهاد فيما يليها ، فكان لولايته طابع خاص لانهجته عند أحد ممن سبقوه ، فقد كان هؤلاء مشاركة يقبلون على البلاد وهم لا يكادون يعرفون من أمرها شيئاً ، ولا يكادون يحملون إليها العصبيّة الزينية أو القيسية ويزيدون الحال سوءاً . فأما عبد الرحمن فأندلسي لا يكاد يلتقي بالآلى هذه الجاهلية العصبية ، ولا يكاد يلتفت إلا لآقرار الأمن في البلاد وموالاته الفتح فيما يليها ^(٣) .

تجمع الروايات الإسلامية على الثناء على عبد الرحمن ، بل يذهب بعضها إلى القول بأنه أعظم ولاية الأندلس أجمعين وأكثرهم فضيلة وأشدّهم إخلاصاً في القيام بما تفرضه الأندلس على واليها من الواجبات ، والواقع أن المراجع لم يتألف في ذلك كثيراً ، فقد كان عبد الرحمن في واقع الأمر منظمًا قادراً وجندياً

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ص ٢٩ — إيزودور ، فقرة ٥٦ و ٥٧

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٩ — ١٠

LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne musulmane*, I. p. 48 .

(٣) عن عبد الرحمن العافق ، انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٦ — ٢١٧

ابن حيان عند المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٥٩ — أخبار مجموعة ، ص ٢٥ —

ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ص ٢٧ — ٢٨ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٤

ISODORO PACENCE, *Cronicón*, cc. 56-63 .

باسلا، وربما شاركه في إحدى هاتين الصفتين بعض من سبقه من ولادة الأندلس مثل السمع ابن مالك أو عنبة بن سُحيم ، ولكنه يمتاز عن هذين وغيرها بأنه كان سليماً من نزعة العصبية التي أفسدت على معظم هؤلاء الحكام أعمالهم . وقد كان الرجل من غافق إحدى بطون كهلان اليمنية ، ولسنا نعلل اختيار عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي المتشدد إياه إلا بأن شخصية عبد الرحمن كانت من الظهور بحيث صرفت عبيدة عن التفكير في قيسيته التي أفسدت عليه الأمور زماناً^(١) ، ويبدو أن عبد الرحمن كان يتمتع بمركز عظيم بين عرب الأندلس ، لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها يمنية وقيسية .

ولم يوفق عبد الرحمن في غزواته الكبرى التي أراد أن يفتح فيها غالة رغم ما حشد من عدة وما بذل من جهد ، واستشهد هو وقرع عظيم ممن كانوا معه عند بلاط الشهداء على مقربة من بواتيه في رمضان سنة ١١٤ هـ . ولا نزاع في أن ابن حيان قد بالغ حينما زعم أن أحداً من جيش عبد الرحمن لم ينبج من هذه الموقعة ، لأنه لا يعقل أن يقتل من المسلمين سبعون ألفاً ثم لا تضطرب الأندلس كلها . والواقع أن عدد أعظما من جنود عبد الرحمن عاد إلى الأندلس قبل الموقعة مستوحشاً من طول الشقة ، فلما فاجأه العدو ألقاه في قلة فاستشهد وبعض من بقي معه . كان لهذه الهزيمة وقع شديد في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك ، فقد أقبلت إليه أخبارها بعد فشل أخيه مسلمة بن عبد الملك في اقتحام أسوار القسطنطينية بأربع عشرة سنة ، فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عجزت عن اقتحام معقل المسيحية الكبرى في الشرق والغرب ، فساء ذلك ، وأخذ يفكر تفكيراً جاداً في علاج هذا الموقف ، وفي تقوية جبهة الاسلام من ناحية الغرب ، ويبدو أنه تخوف خطر الفرنج على مسلمي الأندلس بعد إذ استشعر قوتهم بعد هذه المعركة .

(١) وكان عبد الرحمن الغافق في خلاف دائم مع عبيدة بن عبد الرحمن ، ومصدق ذلك رواية لابن عبد الحكم يقول فيها بعد تفصيل أعمال عبد الرحمن في إحدى غزواته في بلاد الفرنجة : « وكان فيما أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة ، فغضب غضباً شديداً ، فكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : ان السماوات والارض لو كانتا رتقاً ، لجعل الرحمن للمتقين منهما مخرجاً ، ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ... » ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٤٧

بدا هشام فهزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقية في أواخر سنة ١١٤ هـ لأنه كان قيسياً مسرفاً في عصبية حتى لقد أثار اليمينية وكاد يقع المغرب الإسلامي كله في فتنة عصبية كبرى ، واستبدل به قيسياً آخر كان يحسب أنه أهدأ منه نفساً وأقل عصبية ، ذلك هو عبيد الله بن الحبحاب .

بدا عبيد الله بن الحبحاب ولايته في إفريقية بدءاً
مصابيح الحكم في المغرب
حسناً، وقد كان وفق في مصر توفيقاً طيباً^(١) ولكنه
بعد موسى بن نصير

لم يستطع أن يدرك في إفريقية ما أراد من الإصلاح وتمهيد النفوس ، ذلك أن المغرب الإسلامي كان يجوز إذ ذاك أزمة سياسية واجتماعية حادة . ولا بد أن نعود بتاريخ المغرب سنوات إلى الوراء لنتتبع هذه الأزمة منذ مبادئها . ذلك أن حكومة موسى بن نصير وابن أبي عمير عبد الله وعبد الملك من بعده في المغرب أضعفت على المسلمين ثمرات حكومة حسان بن النعمان وإصلاحاته ، فقد اشتد موسى وبنوه على البربر شدة نفرتهم وبغضت العرب إليهم ، وزاد الأمر سوءاً أن آل موسى احتضنوا بعض القبائل واعتبروا أفرادها موالى لهم وفضلوهم على غيرهم ، فأثار ذلك نفوس بقية القبائل ، وأخذ كثير من البربر يشعرون بأن الحكم العربي الجديد ليس خيراً في كثير من الحكم البيزنطي المنقضى .

ولو استمر الأمر على ذلك بصورة مضطربة لا تفجرت ثورة البربر في زمن مبكر جداً ، ولكن الأحوال هدأت بعد انقضاء أمر آل موسى فترة دامت أربع سنوات من ٩٧ — ١٠١ هـ / ٧١٥ — ٧٢٠ م بسبب اعتدال محمد بن يزيد القرشي^(٢) واسماعيل بن عبيد الله اللذين توليا حكومة المغرب بعد آل نصير على ما ذكرناه^(٣) .

(١) ابن الأبار ، الحلة السراء (طبعة دوزي) ، ص ٣٢ — ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٣٢ ، ٣٣ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٦١

(٢) المقرئ ، خطط (طبعة فيث) ، ج ٢ ص ٦١ — ٦٣
نفس المؤلف : البيان والاعراب عما بأرض مصر من العرب ، طبعة فستنفلد تحت عنوان :

WÜSTENFELD, Abhandlung über die in Ägypten eingewanderten arabische Stämme, Göttingen, 1847, pp. 39-40.

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢١٣ — ابن خلدون (طبعة نوبل دي فرجي) ، ص ٨

وقد بلغ من توفيق اسماعيل في إقرار السلام في البلاد أنه « لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم »^(١) كما يقول ابن عبد الحكم ، ولم يبالغ راويتنا الجليل كثيراً في ذلك ، فالواقع أن حسن سياسة إسماعيل وحرصه على نشر الاسلام قد كسبا للدين عدداً عظيماً جداً من البربر ، فلو قلنا إن ولايته ثبتت قدم الاسلام في افريقية ما بالغنا ، لأن الغرب أصبح بعد ولايته بلداً إسلامياً يغلب على أهله هذا الدين^(٢) .

وكان من سوء الحظ أن خليفته في ولاية المغرب لم يكن يقاربه في شيء من ذلك ، بل كان رجلاً يمينياً جافياً شديد العصبية قليل الكياسة هو يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ، ولاء يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ / ٧٢٠ — ٧٢١ م على ما ذكرنا . ومن غريب الأمر أن يزيد بن عبد الملك أصبح عبد الله بن موسى بن نصير ، وكان عبد الله قد عُزل عن المغرب وانتقل إلى المشرق في سنة ٧١٤ هـ / ٧١٤ م^(٣) ، ولسنا ندرى السبب في ذلك التصرف من يزيد ، وربما أراد منه أن يكون عبد الله — بماله من الخبرة بالبلاد والمعرفة بشؤونها — عوناً ليزيد بن أبي مسلم في شؤنه ، ولكنه أخطأ التقدير ، لأن عبد الله كان موغراً الصدم من بني أمية ينتظر الفرصة للاقتصاص منهم بما فعلوا بآله وبه نفسه . ثم إن أنصار بني نصير لم يكادوا يعلمون بمجيء عبد الله حتى خرجوا يتلقونه مرحبين ، يحسبون أيام عزهم قد عادت ، فساور الخوف نفس يزيد بن أبي مسلم من هذه المسكنة التي كانت لبني نصير ، وأدركته الغيرة مما رآه من منزلة عبد الله بن موسى في نفوس أهل البلاد ، فأحب أن يبغضه إلى نفوسهم ، وأن يضعه في مركز حرج ، فطلب إليه أن يقوم بأعداد العطاء اللازم للجند خمس سنين من ماله ، ثم أمره أن يلزم داره^(٤) ،

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الناجي ، معالم الايمان ، ج ١ ص ١٥٤ — ١٥٦ — ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ ، ولا يؤيد ابن عبد الحكم في القول بهذا مؤرخ آخر ، ولسكننا تقبل روايته لأنها أقدم ما لدينا . ولم يتحدث أحد من المؤرخين المغريين عن هذه الناحية بتفصيل يعيننا على تعرف الواقع .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٤ ، ولا يبعد أن يكون ذلك بايعاز من يزيد ابن عبد الملك ، لأنه كان يعتقد — مثل أخيه سليمان — أن بني نصير اجتنبوا أموالاً جسيمة وأخفوها عن الدولة حتى لا تتقاضاهم أياها .

وأعقب يزيد ذلك بالشدة البالغة مع موالى بنى نصير من البربر ، فوضع يده عليهم ، واعتبرهم جزءاً من الخمس يتبع لبيت المال ويؤول لعامل المغرب ، وأحصى أموالهم وأولادهم ، وجعل نفراً من هؤلاء الموالى حرسه وبطانته ، وأراد أن يقضى على كل أثر لجاه بنى نصير في إفريقية . ولو قد اقتصر الأمر على ذلك لكان البلاء ، ولكنه لم يقصر هذا العسف على آل نصير ومواليهم ، بل توسع فيه حتى شمل به البربر أجمعين ، وأراد أن يسير في البربر بسيرة مولاة الحجاج في أهل العراق ، وفاته أن معظم من اشتد عليهم من البربر كانوا من البترو زناتة ، أى من البربر الذين انضموا للعرب من أول الأمر وقد موالى إليهم أخلص العون . ثم حفزه خرق الرأي إلى أن يتخذ قراراً كان فيه حتفه : قرر أن يشم حرسه البربر في أيديهم ، فخطب الناس فقال : « انى ان أصبحت صالِحاً و شمتُ حرسى في أيديهم كما تصنع الروم ، فأشتمُ في يد الرجل الينى اسمه وفي اليسرى « حرسى » فيعرفوا بذلك من غيرهم ^(١) » إسرأفأمنه في الاستخفاف بالبربر و طلباً للون من الأبهة لم يعرفه العرب قبل ذلك . فثارت نفوس البربر لذلك ودبروا قتله ، وكان عبد الله بن موسى بن نصير يؤلبهم عليه ويزيد نفوسهم ثورة واضطراباً ، وبتحريضه قُتل يزيد بن أبى مسلم ، اغتاله حرسه في سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ - ٧٢١ م ^(٢) .

وأقام أهل إفريقية قاضيه المغير بن أبى بردة القرشى واليا حتى يأتيهم رأى خليفة يزيد بن عبد الملك ^(٣) ، فلما بلغ يزيد أنبأ مقتل يزيد بن أبى مسلم أمر عامله على مصر بشر بن صفوان أن ينهض إلى إفريقية ويخلف مكانه أخاه حنظلة ^(٤) ، فدخل بشر إفريقية في نفس العام الذى قتل فيه يزيد ، وكان أول ما فعله

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٤ . وراجع تعليق فورتل على ذلك : cf : Fournel, *Les Berbères*, I. p. 271, note 8.

(٢) رياض النفوس ، ص ٣٥ (١) .

(٣) ولم يستقر المغير في الولاية الا قليلا ، لأن ابنه خوفه من أن يظن الخليفة أنه شارك في قتل يزيد بن مسلم اذا وجدته والياً مكانه ، فاعتزل ، وولى أهل إفريقية مكانه محمد بن أوس الأنصارى ، وكان بتونس على غزو بحر ها ، فأرسلوا اليه فولوه أسرم ، ثم عزله يزيد ببشر ابن صفوان : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٥

(٤) F. Wüstenfeld, *Die Statthalter von Ägypten zur Zeit der Chalifen* ; erste Abteilung (Göttingen 1875), pp. 42-43.

هو أن أخذ عبد الله بن موسى بن نصير فقتله^(١)، وتتبع أموال بني نصير بالاستقصاء وأنصارهم بالتعذيب ، وعزل عن الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي وولى مكانه كلياً يمينياً هو عنبسة بن سحيم^(٢). وظل بشراً عملاً على إفريقية بقية خلافة يزيد وجزءاً من ولاية هشام حتى توفي في شوال سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧ — ٧٢٨م واستطاع أن يهدى أموراً بسبب ما أسرف فيه من استعمال القسوة البالغة^(٣)؛ ولم يسرف أحد من عمال بني أمية الكلبيين في العصبية لقومه أحد كما فعل بشر، فقد اشتد في ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقداً، وغدوا يترقبون موته بنافذ الصبر، وكان هو نفسه يشعر بذلك، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكي من أن جارية من جوارى بشر قالت وهو يعاني سكرات الموت: «يا شمة الأعداء! فقال لها: قولي للأعداء لا يموت!» حتى لا يستطيعهم الفرح. وكان بشر أخشى أن يقيم هشام على البلد رجلاً قيسياً بعده، فترك عليها العباس ابن باضعة الكلبي والياً ورجاً أن يثبت هشام في الولاية^(٤). ولكن هشام بن عبد الملك انتهز فرصة وفاته ليولى مكانه قيسياً هو عبيدة بن عبد الرحمن، وقد وقع دخوله إفريقية على نفوس الكلبية موقع الصاعقة، حتى أن رأسهم العباس بن باضعة خارت قواه ولم تحمله رجلاه حيناً بلغه النبأ^(٥) (١١٠هـ / ٧٢٨ — ٧٢٩م).

ولم يكن عبيدة بن عبد الرحمن على اقتداره
 والمغرب أثناء خلافة هشام بن عبد الملك
 وحسن رأيه بأحسن معاملة للبربر ممن
 سبقوه، فقد أسرف في مغازاة من بعد

من قبائلهم وسبى نساءهم حتى ليقال إنه عند ما بارح إفريقية يريد المشرق سنة ١١٤هـ / ٧٣٢ — ٧٣٣م «كان فيما خرج به من العبيد والأماء ومن الجوارى المتخيرة ٧٠٠ جارية، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة

(١) نفس المصدر والصنعة.

(٢) ابن عذارى، البيان، ج ٢، ص ٢٦.

(٣) ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٣٦ — ابن الأثير، الحلة السيرة، ص ٤٧.

(٤) المالكي، رياض النفوس، ورقة ٣٥ (ب).

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٧.

والآنية^(١)» مما يدل على عسفه للناس وشدة معهم^(٢)، وكان إلى ذلك شديد الوطأة على كل من انتمى إلى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية، فأذى نقرأ كبيراً منهم، وكانوا من كبار أهل البلاد وأصحاب السلطان على نواحيهم^(٣). بيد أن عبيدة كان يشعر أن الحال في إفريقية لم يكن على ما يرام، وأن ربح الثورة كانت تهب على البلاد، بسبب سوء سياسته وسياسة من سبقه من ولادة إفريقية، ولهذا سأل هشاماً أن يعفيه من الامارة لغير سبب ظاهر، فأعماه، وبارح إفريقية إلى المشرق بعد أن غل من المغرب من المال شيئاً كثيراً، وبعد أن استبد بالبربر وباليمنية استبداداً بالغا.

وأقام هشام عامله على خراج مصر عبيد الله بن الحبحاب الذي ذكرناه والياً على إفريقية والأندلس في ربيع الآخر سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م، وبهذا أصبح هذا الرجل يحكم غرب الدولة الإسلامية كله من حدود مصر إلى البرانس، وهي مساحة تزيد على نصف الدولة الإسلامية كلها. وكان بسط سلطان ابن الحبحاب على هذا النحو خطأ فادحاً، لأن الرجل كان رغم ثقافته الواسعة قيسياً مبالغاً في قيسيته^(٤)، ثم إنه كان إلى ذلك بعيداً عن الكياسة وبعد النظر اللازمين لرجل توكل إليه أمور مثل هذا الملك الشاسع يفعل به ما يريد.

كان أول ما فعله عبيد الله هو أن قسم ولايته على بنيه وأنصاره: جعل ابنه اسماعيل على السوس، وولى ابنه عبد الرحمن على مغازي السودان، وجعل على طنجة رجلاً من أتباعه يسمى عمر بن عبد الله المرادي، وجعل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي، واحتفظ لنفسه بإفريقية لكي يكون في مكان قريب من المشرق يستطيع أن يدير منه ولاياته جميعاً^(٥).

(١) نفس المصدر، ص ٢١٧

(٢) ابن الأبار، الحلة السيرة (طبعة دوزي)، ص ٤٨، ٤٩

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٧ — الأخبار المجموعة ص ٣١ — ٣٢ —

ابن عذارى، البيان المغرب ج ١ ص ٣٩ — النويري، نهاية، ص ٣٣ — السيوطي، تاريخ الخلفاء (طبعة القاهرة) خلافة هشام بن عبد الملك: ص ٤٨ — ٤٩

(٤) النويري، نهاية، ص ٣٣ — المقرئ، خطط (طبعة قييت)، ج ٢ ص ٦١ — ٦٣

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٧

وكان عبيد الله بن الحبحاب كغيره من القيسية شديد العصبية العربية لا يكاد يقيم لغير العرب وزناً ، فجعل يعسف البربر لا يكاد يحفل لمشاعرهم ، وجعل كذلك يتبع من وجد من الهمية لا يكاد يعفهم من عذاب شديد ، وامتد أذاه إلى أتباعهم ومواليهم وفيهم أنصار بنى نصير الغاضبون لما أصاب هذا البيت الكبير من الأذى على يد هؤلاء القيسيين ، وكان من هؤلاء رجل يسمى عبد الأعلى بن جرجج الأفريقى وكان أصله رومياً ، وكان مولى لابن نصير ، وكان قد كون لنفسه عصبية بربرية كبيرة فى نواحي طنجة^(١) .

فاذا بلغ عسف القيسية ورئيسها فى الغرب الاسلامى كله عبيد الله بن الحبحاب هذا المبلغ ، فقد بدأت أنفاس البربر تتطلع إلى الخلاص ، ولو قد كان عبيد الله وعماله على شيء من بعد النظر لاستشعروا اضطراب النفوس فى المغرب جميعه ، ولكنهم كانوا كما قلنا لا يكادون يحفلون لمشاعر هؤلاء البربر ، حسباً منهم أنهم لن يستطيعوا قبلهم شيئاً . ويبدو أن قضاء بن الحبحاب على ثورة أهل مصر قبل ذلك قد هون فى نظره شأن غيرهم من الشعوب التى كانت خاضعة لحكمه .

وبلغ من استخفاف بن الحبحاب بالبربر أن أراد اعتبارهم جميعاً فيئاً للمسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، وكان الولاة قبله يقصرون هذا اللون القاسى من المعاملة على من لم يسلم من البربر ، من استأمن منهم ومن لم يستأمن ، فأبى عبيد الله إلا أن يزيد الأمر سوءاً بوضع مسلمى البربر موضع العبيد الذين يملك المسلمون رقابهم ، ومضى فى تنفيذ ذلك ، فكتب إلى رجاله بحصر خمس البربر واعتبارهم رقيقاً^(٢) ، ولم يكن عبيد الله ليستطيع أن ينفّر البربر ويسبى اليهم بأكثر من هذا ، فهؤلاء قوم أسلموا ومنهم من اشترك فى جيوش المسلمين غازيا واندرج اسمه فى الديوان ، فكيف يعتبر بعد ذلك عبداً رقيقاً ؟

ولو اقتصرَت المعاملة السيئة على البربر ونصارى الأندلس وحدهم لكان من الميسور تلافى الخطر إذا بقى العرب جميعاً يدأ واحدة — وهم لم يكونوا

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٨

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٤

قليلين في إفريقية والأندلس — ولكن ابن الحبحاب كان مسرفاً في قيسيته لا يكاد يعنى اليمينين من شر ، فتغيرت نفوسهم عليه ، ولما كان أكثر عرب البلاد يمينين ، فقد وقف القيسيون بسبب سياسته رئيسهم ابن الحبحاب من أهل البلاد جميعاً — عرباً وغير عرب — موقف العدو ، وغدا هؤلاء لا ينتظرون إلا الفرصة الملائمة ليمقلبوا على ابن الحبحاب والقيسية بل على العرب جملة . ولم يكن الدعاة الذين تحدثنا عنهم ينتظرون فرصة هي أعظم من هذه ، فنفس أهل البلاد تغلى والعرب منقسمون على أنفسهم ، وليس أهون عليهم في مثل هذا الظرف من توجيه البربر وإرشادهم إلى طريق العمل . وسرى من حوادث الثورة التالية أنها كانت مرتبة مقدرة ، وأن أيدي محركيها من خوارج العرب كانت ظاهرة لاحتجاج إلى طويل بحث ، وأغلب الظن أن هؤلاء الخوارج وقفوا في إقناع البربر بأن الله لم يقصر حق القيادة والامامة على العرب وحدهم ، بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح ، وأن حكام العرب حادوا عن الطريق القويم ، وأنهم — أي البربر — إذا وثبوا بالعرب لم يكونوا في ذلك إلا منفذين لتعاليم الاسلام كما وردت في القرآن ، وسرى ذلك بوضوح حينما يعلن رئيسهم ميسرة نفسه إماماً ويتسمى بالخلافة ، وحينما يرفعون المصاحف على الأُسنة كما كان خوارج المشرق يفعلون^(١) .

ويبدو أن أعداد هؤلاء الدعاة كانت عظيمة في المغرب ، لأن الأمان عند قبائله وفي شعبه كان ميسوراً ، ولأن البربر كانوا ساخطين تتأجج نفوسهم بالثورة على العرب ، فكثرت حجج هؤلاء الخوارج إلى المغرب واختفأ بهم بين قبائل البربر ، ولم يلبثوا أن قلبوا المغرب كله رأساً على عقب . ولما كان هؤلاء الدعاة لا يستطيعون أن يقيموا في إفريقية أو في المغرب الأوسط لقرب هذه النواحي من مقام عامل بنى أمية في القيروان ، فقد تخيروا لمقامهم ولدعواتهم نواحي المغرب الأقصى البعيدة : إقليم طنجة ونواحي السوس الأقصى بوجه خاص ، إذ كانت هذه النواحي مواطن ثلاث من أكبر القبائل الزناتية وأكثرها استعداداً للثورة وهي غمارة وبرغواطه ومكناسة ، وانضمت إليها كذلك أعداد قليلة من صنهاجة .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٢

وكان في القيروان إذ ذاك رجل من قبيلة

مطغرة، يسمى ميسرة، ويتفق معظم المراجع العربية على تسميته بالحقير أو بالحقور، وتذهب

ميسرة وبدء الثورة
في اقليم طنجة

الى أنه كان يبيع الماء في مساجد القيروان^(١)، وليس ذلك بصحيح، لأن ابن خلدون يؤكد أنه كان رئيس مطغرة^(٢) أو لعله كان ينتسب الى بيت كبير من بيوت هذه القبيلة، ولأن ماسيلي من الأحداث يدل على أنه كان رجلاً ذا عصبية لها خطرها، والثابت أن ميسرة كان من رواد المجالس العلمية في مساجد القيروان، وأنه كان ذكياً بعيد المطامع شديد الميل للمغامرة، فوجدت مبادئ الخارجية الصفيرية سبيلها الى نفسه فاعتنقها، ووقر في نفسه أن ينشرها في بلاده، واتجه بصره الى مواطن مطغرة في اقليم طنجة، فضى الى هذه الناحية واندس بين جماعات قومه مطغرة، وأخذ يكسب لنفسه الأنصار ويؤلبهم على العرب وحكامهم، فلم يلبث أن استلهم الى رأيه، فرفعوا راية العصيان، ولم تلبث الدعوة أن امتدت حتى شملت مكناسة، فأقبلت بجموعها وانضمت الى ميسرة وقومه^(٣). ولم تلبث برغواطة أن أعلنت الخروج يقودها داعية خارجية لانكاد نعرف عنه شيئاً وهو طريف بن شمعون ابن يعقوب بن اسحاق ومعه ابن له غلام يسمى صالح^(٤). وانضمت القبائل الثائرة بعضها الى بعض وجعلت تترقب الفرصة لاعلان الثورة والخروج على بنى أمية، وكان عامل طنجة لعبيد الله بن الحبحاب قيسياً شديد العصبية لقيس وللعرب هو عمر بن عبد الله المرادى، فضى يعسف البربر لا يكاد يحسب لشعورهم حساباً، وكان ميسرة إذ ذاك نشيطاً في دعوته، فأعانه جهل عمر بن عبد الله المرادى وسوء سياسته على كسب قلوب الناس.

(١) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٨ — البكرى، المسالك والممالك، ص ١٣٤ —
التويرى، نهاية، ج ١ ص ٣٤

(٢) ابن خلدون، العبر، (طبعة دى ساين)، ج ١ ص ١٥٠

(٣) ابن خلدون (طبعة دى ساين) ج ١ ص ١٦٧

(٤) البكرى، المسالك والممالك، ص ١٣٥

ولم تلبث الفرصة أن سنحت لميسرة وأصحابه للخروج على العرب علانية ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب أرسل قائده حبيب بن أبي عبيدة سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م^(١) في حملة الى صقلية ، وأصحابه خيرة جنده ، فعجل ميسرة وأصحابه ينهزون فرصة ابتعاد جند عبيد الله بن الحبحاب فيما وراء البحر ، فجمعوا أنصارهم ، وتسارعوا نحو طنجة ووالياها عمر بن عبد الله المرادي ، واستولى ميسرة عليها وقتل المرادي ، وانضم اليه عبد الأعلى بن جريج الافريقي ومن معه من الأفارقة وموالي بني نصير ، فأقامه والياً على طنجة ، ثم سار الى نواحي السوس واستولى عليها ، وقتل والياها اسماعيل بن عبيد الله ابن الحبحاب ، وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد المسلمين ، وتخرج مركز عبيد الله بن الحبحاب في افريقية وساء مركز المسلمين في الأندلس^(٢).

وجمع عبيد الله بن الحبحاب نفرأمن خيرة جنده وقوّد عليهم رجلا من كبار عرب افريقية هو خالد بن حبيب الفهري ، وبعث الى حبيب بن أبي عبيدة يتعجل عودته ، فلم يكدر يعود ، حتى بعثه ومن معه من الجند ليشدوا أزرخالد ، والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة ، فانهزموا وقتل منهم نفر عظيم ، وعاد ميسرة الى مركزه في طنجة منصوراً ، ثم ادعى الخلافة وتسمى بها وبويع عليها^(٣) . ويبدو أن النصر ذهب بصوابه ، فأساء السيرة في جماعته ، فلم يلبثوا أن قتلوه وولوا مكانه واحداً من كبار رؤسائهم هو خالد بن حميد الزناتي ، وكان خيراً من ميسرة وأقدر^(٤) (١٢٢ هـ / ٧٣٩ - ٧٤٠) .

(١) ابن خلدون ، العبر (طبعه دي سايين) ، ج ١ ، ص ١٥١ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٨

(٢) انظر عن ميسرة : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٨ — ٢١٩ — ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٤ — ١٥ — ابن عذارى ، البيان ج ١ ، ص ٣٩ — ابن الاثير ، الكامل ج ٥ ، ص ١٤٢ ، ابن خلدون ، العبر (طبعة دي سايين) ج ١ ، ص ١٣٧ و ١٥١

(٣) النويري ، نهاية الارب ، ص ٣٤ — ٣٥

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٨

هنا يحاول فورنيل الدفاع عن ميسرة ، على عهده من امتداح كل ثائر على المسلمين ، ويبدو في هذه المناسبة افتعاله وتكافه بصورة واضحة جدا :

cf : HENRI FOURNEL, *Les Berbères*, I. pp. 288-289.

وتخرج مركز ابن الحبجاء فى افريقية ، فبعث الى عقبه بن الحجاج السلولى عامل الاندلس يطلب اليه الاسراع لعونه بمن يستطيع من الجند ، فأسرع الرجل ، وحاول مهاجمة مواقع البربر فى طنجة فلم يستطع ، وعاد أدراجه^(١).

وجيش ابن الحبجاء جيشاً آخر احتفل
فى توكوينه وجعل فيه نقرأ عظيماً من
أشراف عرب افريقية والظاهرين منهم ،
هزيمة الأشراف أوائل سنة ١٢٣ هـ
(٧٤٠ / ٧٤١ م)

ورمى بهم قوات خالد بن حميد الزناتى ، فلم يكدها هذا الجيش العربى — يقوده خالد بن حبيب الفهرى — يقارب طنجة ويلقى البربر ويشدد القتال بينه وبينهم حتى فجأه خالد بن حميد من خلف بعسكر عظيم ، فانهمز بعض أصحاب خالد بن أبى حبيب وكره هو أن ينهمز ، فألقى بنفسه هو وأصحابه فى أوار المعركة ، فقتل هو ومن كان معه ولم يسلم منهم أحد : « وقتل فى هذه الموقعة حماة العرب وفرسانها ، فسميت وقعة الأشراف وانتقضت البلاد ومرج الناس ، واختلفت الأمور على عبيد الله ، فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم^(٢) » وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب غضبة « مضرية » لفظاً ومعنى ، وقرر إرسال جيش عربى عظيم الى افريقية ليؤدب البربر ويقضى على ثورتهم ، وعزل عبيد الله بن الحبجاء فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ / ٧٤٠ وقد أصاب بعزله إياه ، لأن الرجل كان قد تمادى فى سوء التصرف بعد هذه الهزيمة ، وكان دافعه الأول الى ذلك الرغبة فى الانتقام لمقتل ابنه اسماعيل^(٣). ويبدو أن ابن الحبجاء شك فى أن لعرب افريقية يد فى هذه الهزيمة ، فأتاهم نقرأ منهم بأنهم اتفقوا مع البربر والأفارقة على إيقاع الهزيمة بجيشه ، وكانت

ISIDORI PACENCIS, *Chronicon* ; *España Sagrada*, VIII. Cap. (١)

61 in p 302

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٥

(٣) « وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، فقال : أقتل هؤلاء الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من الغرب ؟ قيل : نعم ! فقال : والله لأغضبن لهم غضبة عربية » نفس المصدر والصفحة .

جماعة من هؤلاء العرب الافريقيين تقيم في تلمسان يرأسها موسى بن أبي خالد ، أحد موالى معاوية بن حديج أحد كبار قادة العرب الذين ساهموا في فتح افريقية بنصيب كبير ، وكان عامل تلمسان « وقد اجتمع عليه من تمسك بالطاعة ، فقبض عليه ابن الحبحاب وقطع رجله ويده ^(١) » ثاراً لمقتل ابنه اسماعيل فأثار على نفسه بذلك العرب الافريقيين أجمعين ، ودفعهم الى الخروج عليه صراحة ، واضطربت أمور البلاد كلها . وكان هذا — في الغالب — هو ما حدا بهشام ابن عبد الملك الى الاسراع فى عزل ابن الحبحاب واستبدال غيره به ^(٢) ، وتم ذلك فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م .

استقر رأى هشام بن عبد الملك على أن يعهد
 كلثوم بن عياض القشيري
 فى ذلك إلى رجل من زعماء القيسية توسم فيه
 ١٢٣ هـ / ٧٤١ م
 القدرة وبعد النظر وهو كلثوم بن عياض القشيري ،

ولم يكن هشام بأحسن حظاً فى هذا الاختيار منه يوم عهد فى إفريقية والأندلس الى ابن الحبحاب : كان كلثوم بن عياض قيسياً شديداً الاعتداد بقيسيته ، وكان فى نفسه الى جانب ذلك غرور جعله يظن أن البربر قوم لاحيلة لهم فى الحرب ، وأنهم اذا كانوا قد انتصروا على عبيدة بن عبد الرحمن وعلى عبيد الله بن الحبحاب ، فأنما يرجع ذلك الى جهل هذين وقلة اقتدارهما . وكان الخليفة قد أوسع عليه فى النفقة ، وأمر عمال مصر وطرابلس وافريقية أن ينضموا اليه بكل ما يستطيعون من رجال وخيل وعدة ، فزاده ذلك غروراً . خرج كلثوم بعدد عظيم من دمشق ومصر بمصر فاستصحب عدداً من خيرة جندها وكذلك فعل بطرابلس وافريقية . فاجتمع له جيش عظيم ^(٣) جعل على مقدمته قائد خيله بلج بن بشر القشيري ^(٤) ، وكان فارساً شهماً إلا أنه كان أشد غروراً

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٨

(٢) نفس المصدر والصفحة — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٣٥

(٣) ابن عبد الحكم . فتوح ، ص ٢١٨

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢١٩ — ٢٢٢ ويقال ان بلجا كان ابن أخيه : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٥ وراجع تعليقات فورنل على هذا الجيش :

H. FOURNEL, *Les Barbères* : I, p 292

ويقتصر ابن عذارى فى الجزء الأول من تاريخه على ذكر عدد الشاميين فى هذا الجيش =

وعصبية من كثوم ، وجعل على رجاله ثعلبة بن ثوبة الجذامي ، وكان من غلاة القيسية كذلك .

ويبدو أن كثوما عول على القتال حتى الموت ، لأنه أوصى بأن يخلفه بلج في القيادة إذا أصابه شيء ، فاذا قتل بلج خلفه ثعلبة بن ثوبة .

كان جند افريقية إذ ذاك موافقين للبربر بناحية طنجة العرب الافريقيون في انتظار المدد من دمشق ، وكانت نواة هؤلاء الجند جماعة من العرب طال بهم المقام والعمل في افريقية حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة لا يطمثون إلى أحد من القادمين من المشرق . مثلهم في ذلك مثل عرب الأندلس إذ ذاك : كانوا يعتبرون أنفسهم « أهل البلد » ويتسمون بالبلديين ؛ وقد تكونت جماعات العرب الأفارقة من جند العرب الأول الذين استقروا أثناء الفتح أو بعده فيما راقهم من نواحي المغرب ، وقد جرت عادة هؤلاء العرب أن يستقروا في النواحي بمن انضم إليهم أو صار في ولائهم من البربر ، فاعتبروا مواليهم واندمجوا فيهم مع الزمن ، وبهذا كثرت جموع هؤلاء العرب الافريقيين وأصبحوا قوة سياسية لها خطرها . ولما كان هؤلاء العرب الأول هم الذين فتحوا البلاد ، فقد أصبحوا يعتبرون أنفسهم أصحابها وملوك نواحيها ، لا يكاد يجرؤ غيرهم من غير قبائلهم على الاستقرار معهم فيها . ووفد إليهم من بلاد العرب طوائف من أبناء عصبيتهم وانضموا إليهم فاشتدت بهم سواعدهم ، ولما كان معظم من شارك في فتح افريقية من العرب يمينيين فقد كثرت جمع اليمينيين في افريقية ، كما كثروا في الأندلس ، وانضمت إليهم جماعات من البربر الزناتية ، وأخذوا ينظرون للقيسيين خاصة نظرهم إلى عدو دخيل . ومن هنا نفهم السر في هذا النفور العنيف الذي أظهره عرب افريقية عند مأخذ ولاية القيسيين يتعاقبون على افريقية

= وم ١٢ الفأ من الفرسان كان يقودهم بلج بن بشر (البيان ، ج ١ ص ٣٨) ، ثم يذكر في الجزء الثاني أن عدة الجيش كله كانت ٣٠ ألف (البيان ، ج ٢ ص ٣٠) . ويؤيده في ذلك ابن القوطية (افتتاح الاندلس ، ص ١٤) ، أما ابن حيان فيجمل عدة الجيش ٧٠.٠٠٠ (أورد تلك الرواية المقرئ في نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢) .

تصاحبهم جماعات قيسية قليلة تريد الاستقرار في البلاد . ولنضيف الى ذلك أن عدداً عظيماً من فاتحي افريقية أنشأوا فيها أسراً من أهلهم وذريتهم ، فأصبحت هذه الأسر مع الزمن ذوات جاه وسلطان بفضل من التف حولها من العرب والموالي والأتباع ، وأصبحت لها رئاسة على جماعات العرب والبربر في النواحي التي استقرت فيها ، ومن بيوت هذه الأسر بيت بنى عقبة بن نافع وكان أقواها وأعظمها ، وبيت معاوية بن حديج ، وبيت بنى نصير . وكان لهذه البيوت الثلاثة النصيب الأوفى من السلطان في افريقية خلال العصر الأموي ، بل صارت الأمور أخيراً الى بيت عقبة بن نافع ممثلاً في شخص عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة^(١) .

وكان هؤلاء العرب الأفارقة « البلديون » مقيمين جماعات ، كل جماعة في ناحية عليهم رئيس منهم يقوم بشئون الاقليم لحساب عامل افريقية في القيروان . وقد سجل المؤرخون لنا منهم جماعات قوية في طرابلس وسيرت وقابس والقيروان ، ومن شخصيات هؤلاء العرب الافريقيين في ذلك الحين : حبيب بن ميمون (سبرت) وعبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، ومسلمة بن سودة القرشي (القيروان) وصفوان بن أبي مالك (طرابلس) وسعيد بن بجرة الغساني (قابس) وحبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ويبدو أنه كان رأس هؤلاء العرب الأفارقة جميعاً ، وكان مقبلاً إذ ذاك بجموع من هؤلاء العرب عند طنجة موافقاً لخالد بن حميد الزناتي زعيم البربر الثائرين وخليفة ميسرة^(٢) . ولم تكن العلاقات بين هؤلاء العرب الأفارقة النازلين مدائن افريقية وأريافها وبين البربر من أهل البلاد على ما يرام ، لأن العرب جميعاً كانوا لا يطمثون إلى البربر بعد هذه الحرب الطويلة التي كانت بين الجانبين أيام الفتح . ولأن العرب الأفارقة كانوا يعدون أنفسهم سادة البلاد وأهلها ، ولأنهم كانوا الى ذلك عماد الحكام وولاتهم على النواحي ، فكرههم البربر لذلك وحملوهم تبعات مظالم

(١) راجع تراجم عقبة بن نافع ورويف بن ثابت الأنصاري ومعاوية بن حديج وربيعة ابن عباد الديلي وزيد بن الحارث الصدافي وأبي عبد الرحمن بن بسر بن ارطاة وأبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد (الافريقي) ومن بعده من التابعين في : المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ورقة ١٠ وما يليها — ابن الناجي ، معالم الايمان ، ج ١ ص ٩٩ وما يليها .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٩ — ٢٢٢

هؤلاء الحكام ، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى معظمهم من اليمنيين منذ أيام موسى بن نصير وبنيه وجُدُّداً غالبيتهم من القيسية وكان الفريقان متعادين كما لاحظنا^(١) .

لهذا كان طبيعياً أن تكون ثورة البربر في إقليم طنجة إيذاناً بثورة عامة جديدة من البربر جميعاً على من بين أظهرهم من العرب سواء أكانوا من رجال الدولة وجندھا أو عرباً مستقرين مسالمين .

وصل كلثوم بن عياض إفريقية ، ولم يشأ ثورة البربر على العرب
أن يريخ بالقيروان ، بل أراح ببلدية سبيلية على مقربة في طرابلس
منها (شوال ١٢٣ / أغسطس ٧٤١) . ثم انصرف

بجموعه إلى ناحية طنجة مخلفاً على إفريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ومسلمة بن سودة القرشي . فلم يكذب بعد عنها حتى نهض زعيم من زعماء زناتة يسمى عكاشة بن أيوب الفزاري — وكان من الخارجية الصقرية — فجمع جموعه بناحية قابس ، وأرسل أخاً له في نفر من البربر ، فحصر واحبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سبرت ، وأقام محاصراً لهم حتى خف لنجدتهم صفوان ابن مالك رأس عرب طرابلس ، فانهزم البربر إلى قابس ، وكان عرب القيروان قد علموا بالأمر وخفوا مع أميرهم مسلمة بن سودة إلى قابس لنجدة عرب هذه الناحية والقضاء على ثورة البربر ، والتقى الجمعان بأحواز قابس ، فانهزم العرب وعادوا مفلولين إلى القيروان حيث أقبل البربر يحاصرونهم بها^(٢) .

(١) تذكر المراجع في أخبار ولاية عبيد الله بن الحبيب قصة تصور لنا هذا العداء بصورة واضحة ، مخصصة أن عبيد الله لم يكذب إلى إفريقية حتى قدم عليه عقبه بن الحجاج السلوي ، وكان الحجاج — أبو عقبه — قد اعتق الحارث جد عبيد الله ، أي أن بني الحارث — وهم بنو الحبيب وغيرهم — كانوا موالى الحجاج السلوي وبني ساول ، فقام ابن الحبيب لعقبة وشرفه ، فأنكر أولاده ذلك ، وخشوا أن يحط من قدرهم في نظر عرب إفريقية ، ولاموا أيام في ذلك . فانتظر ابن الحبيب حتى اليوم التالي ، فلما اجتمع الناس وعمر المجلس استقدم عقبه وأعلن إليه أمام الناس أنه وليه وخطب أولاده مؤنباً أيام على عقوبتهم نحو الحجاج وبنيه ، فغجل الأولاد من أنفسهم . وهذا يدل على أن أولاد عبيد الله كانوا يعتبرون أنفسهم عرباً أفارقة ، أي من أصحاب البلاد ، فكبروا أن يسودهم هذا المشرق المقبل ويحط من قدرهم وهم في هذا يعبرون عن شعور العرب الأفارقة عامة نحو من كان يقبل من العرب ، انظر :

الأخبار المجموعة ، ص ٢٦ — ٢٧

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٩

بهذا زاد مركز عرب إفريقية حرجا : انهزمت قواتهم عند قابس وحاصروهم البربر في القيروان ، وانهزمت قواتهم عند طنجة قبل ذلك ، وأقام خالد بن حميد الزناتي مواقفا لمن بقي منهم على نهر سبو ، وأخذ يثلب بقية البربر عليهم ويستعد لمعركة فاصلة جديدة بينه وبينهم .

في هذه الظروف العصبية كان كلثوم بن عياض
 الخلاف بين العرب الأفارقة
 وكلثوم بن عياض ومن معه
 من القيسية
 ومن معه يقتربون من طنجة ليلقوا البربر ،
 ولو قد كان كلثوم حسن السياسة لتودد إلى عرب
 إفريقية وكسب قلوبهم حتى يقف العرب جميعاً
 جبهة واحدة أمام الخطر الداهم ، ولكنه لقي هؤلاء العرب بمعاملة نفرتهم منه
 وصرقتهم عن عونه ، وكان كما قلنا قيسياً جافياً شديداً الاعتزاز بنفسه :
 أنف أن ينزل القيروان وأراح في سببية ، ثم تقدم نحو طنجة وبعث يأمر
 حبيب بن أبي عبيدة رأس عرب إفريقية بأن يقيم مكانه لا يصنع شيئاً حتى يقدم
 عليه . وكان بلج بن بشر على مقدمة كلثوم كما قلنا ، ولم يكن أقل
 عصبية ولا كبرياء من كلثوم ، فلم يكذب يلقى عبيدة حتى أهانه وحقره ، وأعلن
 إليه أن الشامية قد عولت على المقام في إفريقية واتخاذها داراً ، فجز هذا
 في نفس الأفارقة وأخافهم على ما كان لهم من المكانة في البلاد^(١) . وبعث
 حبيب بن أبي عبيدة إلى كلثوم يشكو إليه ابن أخيه ، فلم يلق عنده إنصافاً كافياً ،
 فامتلاّت نفس أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ونفوس من معه من العرب الأفارقة
 سخطاً على الشامية وخوفاً منهم . ثم وصل كلثوم إلى نواحي طنجة ولقي حبيباً ،
 فعامله نفس المعاملة التي عامله بها بلج قبل ذلك ، وتقدم أبو عبيدة بن عقبة
 (ابو حبيب) يريد نصيح كلثوم فرفض نصيحته وأهانته ، وبهذا انقسم المعسكر
 العربي قبل المعركة إلى فريقين ينطوي أحدهما على اللدد نحو الآخر : فريق
 العرب الأفارقة على رأسهم أبو عبيدة بن عقبة وابنه حبيب بن أبي عبيدة
 وحفيده عبد الرحمن بن حبيب ، وفريق الشامية المقبلين وعلى رأسهم

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٤١

كلثوم بن عياض وبلج بن بشر ، فكان لهذا الانقسام أسوأ الأثر في مجرى الحوادث (١) .

وكأنما أراد هشام بن عبد الملك أن يزيد الموقف تعقيداً ، فأمر كلثوم أن يسير وفق التوجيهات التي يرسمها له هرون القرني مولى معاوية بن هشام ومغيث الرومي مولى الوليد ، وقد أمره الخليفة بهذا بحجة أنهما أعرف ببلاد إفريقية (٢) ، وكان أولى به أن يأمره بالاتفاق مع العرب الأفارقة ، لا بطاعة هذين الموليين اللذين سيزيدان الأمر تعقيداً وحرجا . ويبدو أن هشاما أراد أن يكونا رقييين على كلثوم ، لأن الجيش الذي كان معه كان عظيماً جداً ، كانت عدته تبلغ السبعين ألفاً على قول بعض المؤرخين .

وليس أدل على ما كان بين الحيين من النفور من أن العرب الأفارقة كانوا يغلقون أبواب مدنهم إذا سمعوا بمقدم الشامية ، ويبدو أن بلجاً لم يدخر وسعاً في زيادة نفورهم ، فجعل يقول انه انما أتى ليستقر بمن معه في إفريقية كما ذكرنا ، ولم يكن يستطيع أن يثير نفوس الأفارقة بأكثر من هذا ، لأن معظم من كان قد استقر في إفريقية الى الآن كانوا يمنية كلبية ، وكان مجرد التفكير في اقرار بضعة آلاف من القيسية معهم في نواحيهم كافياً لاثارة نفوسهم واذكاء نار العداوة فيها ، هذا الى أن القيسية كانت فيهم جفوة وقلة كياسة وشدة في العصبية ، فكانوا لا ينزلون بلداً الا أثاروا أهله — عرباً أو غير عرب — هكذا نهلوا في خراسان وفي شمال إفريقية وفي الأندلس .

(١) يقول ابن عبد الحكم في وصف هذه الحالة النفسية التي سادت الجانبين : « وكان كلثوم حين خرج الى البربر قد قدم بلج بن بشر القيسي على مقدمته في الحبل ، فلما قدم على حبيب رفضه وأهان ونزلته ، ثم قدم كلثوم فتلقاء حبيب فتهاون به أيضاً ، ثم خطب كلثوم الناس على ديدبان له فطعن في حبيب وشتمه وأهل بيته . . . » ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢١٩ بل بلغ من اضطراب النفوس أن دار القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر ، ولم يستطع كلثوم اقرار السلام الا بعد جهد . وكان بلج بن بشر من أكثر الناس عصبية لقيسيته ، وهو المسئول عن كثير مما نزل بالعرب في إفريقية والأندلس من البلاء في ذلك الحين : ابن عذارى . البيان ج ١ ص ٤١ — ٤٢

(٢) الأخبار المجموعة ص ٣١

على هذه الحال التقى الجيش العربي مع البربر يقودهم خالد بن حميد

هزيمة العرب
عند بقدورة

الزناقي عند بليدة تسمى بقدورة أو نقدورة على مقربة
من تاهرت على مجرى نهر سبو^(١)، وقد رأى هرون القرني

ومغيث الرومي أن أعداد البربر عظيمة جداً ، وخافا على العرب منها ، فنصحا
كلثوما بأن يضرب حول معسكره خندقاً ، ولكن الغرور ملأ نفس بليج ،
وظن أنه إذا جال بخيله لم يلبث البربر أن يتفرقوا ، وغاب عنه أن البربر قوم
ذوو جلد على الحرب وحيلة في الميدان ، فصنعوا أكياسا من الجلد ملأوها
بالحجارة ، وأخذوا يهزونها بشدة ويقذفونها على رؤوس الخيل ، فنفرت
وروعت ، ولم يستطع الفرسان القتال عليها ، فأمرهم كلثوم أن يترجلوا ،
ولم يكن البربر يرجون خيراً من ذلك ، فانقضوا على العرب وأحاطوا بهم ،
وأعملوا فيهم السيوف ، وتبدت طلائع الهزيمة لكلثوم ، فخطب حبيب بن
أبي عبيدة وعرض عليه قيادة الجيش ، فقال حبيب : قد فات الأمر ! ثم اشتد
القتال وأحاط البربر بالعرب حتي كادوا يأتون عليهم أجمعين ، فلما رأى حبيب
ذلك عزم على الاستشهاد وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يلزم بلجاً ، وقا تل حتى
قتل ، وهكذا أبدى هذا العربي الفهري من الشهامة والبسالة ما يملك النفس ،
وراح ضحية شدة القيسيين وعصبيتهم . وكان بليج قد رفض أن ينزل عن جواده
وبقى معه نحو عشرة آلاف ، فحملوا على البربر في عنف حتى اخترقوا صفوفهم
ووصلوا خلفهم ، ثم استدار لهم البربر وكاثروهم حتى اضطروهم إلى الفرار ، فقرروا
— يتقدمهم بليج — في اتجاه طنجة . وأما بقية العرب فقد أحاط بهم البربر

(١) بين المؤرخين خلاف حول مكان هذه الواقعة ، فيذهب الرازي إلى أنها كانت على نهر
ملوية (روى ذلك ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ١٥٢) ، ويذهب ابن عذارى وابن خلدون
إلى أنها كانت على نهر سبو (ابن عذارى البيان ج ١ ص ٤٧ وابن خلدون ، العبر ، ج ١
ص ١٣٧) ؛ أما صاحب الأخبار المجموعة فيذهب إلى أن الواقعة كانت عند بليدة تسمى
نقدورة أو بقدورة (الأخبار ، ص ٣١) ، وجعلها ابن القوطية بقدورة (بالباء) . انظر
الافتتاح ص ١٥ . ولم نجد بليدة بهذا الاسم في هذه الناحية من افريقية ، وربما كانت صحة
الاسم بقدورة بالباء ، فقد ذكر ابن خلدون بليدة بهذا الاسم دون أن يحدد موقعها .
راجع : العبر (طبعة دي سلاين) ، ج ٣٥٤ وانظر أيضاً :

FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 294 n. 1.

واشتدوا في قتلهم حتى قتل هرون ومغيث وحبيب بن أبي عبيدة وكنثوم نفسه ، وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ، حتى ليؤكّد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربي الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر راح أسيراً ، وأما الباقيون فقد تفرقوا فلولاً مهزومة لا تكاد تلوّى على شيء بعد السلامة^(١) (١٢٤ هـ) .

أما بلج وأصحابه من الشامية فقد انهزموا إلى الغرب « وأتبعهم أبو يوسف الهواري ، وكان طاغية من طواغى البربر ، فأدركهم فقتلهم ، فقتل أبو يوسف وانهزم أصحابه^(٢) » واستطاعوا آخر الأمر أن يدخلوا سبتة ويتحصنوا بها ، وأقبل البربر يحاصرونهم ويهاجمونهم المرة بعد المرة ويحاولون الاستيلاء على هذا البلد منهم ، فلم يستطيعوا ، فلما يئسوا قطعوا الزروع حول الحصن ، وأقاموا مشددين الحصار حوله حتى عَدِمَ بلج وأصحابه الأقوات وساءت حالهم كثيراً .

وزادت ثورة البربر في إفريقية عنفاً ، وقام من البربر في كل ناحية زعيم يقود مواطنيه في هذا الكفاح : قام أبو يوسف الهواري يقود بربر إقليم طنجة ويقاتل بلجا ومن معه ، وتجمعت جموع عظيمة منهم في ناحية الزاب يقودها قائدان بربريان هما عكاشة بن أيوب الفزاري الصفرى الخارجى وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، وأخذا يستعدان للسير نحو القيروان ، فلما أتتا العدة سار عكاشة على طريق مجانة واقترب من القيروان وعسكر عند « القرن » ، وأما عبد الواحد فسار على طريق الجبال واقترب من القيروان وعسكر عند طُبْنَه ، وكان على مقدمة جيشه أبو قرّة المغيلي^(٣) .

(١) ابن عبد الحكم ، افتتاح ، ص ٢٢٥ ، و Isidori Pacencis, *Cronicon*, cap. 68-69. الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ — ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٥ — النويرى ،

نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦ — أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ، ص ٣١٩ ،

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٢٠ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٣٧

وراجع :

FOURNEL, *Les Berbères*, I.p . 299 n. 2.

وكانت هزيمة « الأشراف » قد روعت هشاماً وملاّت نفسه خوفاً من ناحية البربر كما رأينا ، ثم وقعت هذه الهزيمة عند بقدرورة فكانت ضغثاً على ابالة ، وأحس أن المسألة ليست باليسر الذي تصوره ، وأن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب والأندلس جملة عن طاعة الخلافة ، فعجل بتخير نحو ثلاثين ألفاً من خيرة جنده بعثها إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، وأمره بالأسراع إلى إفريقية ، فوصل حنظلة القيروان بمجنوده في ربيع الأول سنة ١٢٤/٧٤١م ، وأخذ يرسم الخطة للقضاء على هذه الثورة الخطرة . وكان هشام — رغم مرضه — دائم الاتصال بحنظلة وجيشه لتوجيههم والاطمئنان على مصيرهم ، وتحدثنا المراجع أنه هو الذي رسم لحنظلة خطة العمل ، فنصحته بأن لا ينتظر حتى يجتمع الجيشان البربريان عليه ، وأن يعجل بحرب كل منهما على حدة ^(١) .

وقد فعل حنظلة ذلك : خرج للقاء عكاشة ومن معه عند القرن ، فالتقى بهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً ، وقتلهم قتلاً ذريعاً . ويبدو أنه خسر عدداً عظيماً من جنده في هذه الواقعة ، لأنه عاد إلى القيروان بعدها ليستعد للسير إلى جمع البربر الثاني المعسكر على مقربة من طنجة يقوده عبد الواحد بن يزيد الهواري وأبو قرّة المغيلي .

يذكر النويري أن عبد الواحد كان في ثلاثمائة ألف ^(٢) ، وظاهر أن تقديره هذا مبالغ فيه ، لأنه لو كان في هذا العدد العظيم حقاً لما استطاع حنظلة الانتصار عليه بالعدد القليل الذي كان معه ، ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده في الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة ، وأنه تناسى قيسيته في هذه اللحظة الحاسمة ، وجمع العرب جميعاً ، أفارقة وغير أفارقة ، على لواء واحد للدفاع عن مصير العرب في إفريقية « فأخرج جميع ما في الخزائن من السلاح ، ونادى في الناس فكان يعطى لكل منهم درعاً وخمسين ديناراً ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس ، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٧

ولم يقدم إلا شابا قويا . فعبا الناس طول ليلته ، والشمع حوله وبين يديه ، فعبا في تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وأصبح وقدم للقتال ، وكسرت العرب جفون سيوفها ، والتقوا ، ولزم الرجال الأرض ، وجثوا على الركب ، وكان ذلك بمكان يسمى «الأصنام» على مقربة من طبنة ، واشتد القتال وصبر العرب صبرا ^(١) . وكان عكاشة قد أسر في القرن ، فأمر به حنظلة فقتل صبرا ^(٢) ، وانتهت المعركة بانتصار العرب ، وقتل فيها عبد الواحد ، وانقسم ظهر الثورة وأخذت البلاد تهدأ ، وكان ذلك سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣ م . ومات هشام قبل أن تصله أخبار هذا النصر ، وخلفه الوليد ابن يزيد ، فأقر حنظلة على ولاية افريقية ، وساد السلام ربوعها أثناء خلافته القصيرة ، لأن حنظلة كان معتدلا في عصبية ، فأخذ عرب البلاد يطمئنون الى مصيرهم ، ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية .

ولكن الأخبار لم تلبث أن وردت بمقتل الوليد بن يزيد في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ / أبريل ٧٤٤ م ، وكان الوليد شديد العصبية للقيسيين دائم الانتصار لهم ، وكان مقتله ايذانا بانتصار أعدائهم اليمانيين وعودتهم الى السلطان . ولهذا ريع القيسيون في افريقية عندما بلغهم النبأ ، وخافوا أن يتقلب عليهم اليمانيون والبربر الزناتيون يؤازرهم الخليفة الجديد وأنصاره . فخرج إلى الشام نفر من كبارهم وجندهم ، وبقي حنظلة في نفر قليل من القيسية ^(٣) .

(١) وبعث حنظلة أبا الحظار واليا على الأندلس . وأمره أن يبعث اليه مددا من جندها ويبدو أنه لم يوفق الى شيء ، لأن حال العرب في الأندلس لم يكن حسنا كما ستري . عن معركتي القرن والأصنام انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢١ — ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٥ — ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٤١ — الأخبار المجموعة ص ٣٦ — ٣٧ النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ص ٣٧ ؛ والنص الوارد هنا عن النويري ؛ هذا والأصنام موضع كانت فيه آثار رومانية قديمة في ذلك الحين ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكانه ، وأقرب آرائهم الى الصحة هو ما يذهب الى أن الاصنام تقع على ثلاثة أميال شمال القيروان على مقربة من جلولاء . راجع Fournel, *Berbères*, I. p. 300 n. 4 .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٤١

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٣

ويبدو أن القيسيين كانوا على الحق فيما تخوفوا من انقلاب اليميين عليهم ، لأن رأس هؤلاء اليميين والعرب الأفارقة ، عبد الرحمن بن حبيب ابن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع لم يلبث أن بادر إلى العمل .

كان عبد الرحمن مع بلج بن بشر في الطائفة التي انهزمت إلى سبته عقب هزيمة الأشراف ، إذ كان أبوه حبيب بن أبي عبيدة قد أمره بأن يلزم بلجاً ، فلما انهزم بلج ولجأ إلى سبته ، تركه عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقي أميرها إذ ذاك عبد الملك بن قطن القهري — اليميني مثله — وجعل يشيره على بلج وأصحابه ويخوفه منهم . فلما تسامع بموت الوليد وخروج معظم القيسية إلى الشام عاد إلى إفريقية معجلاً ، وجمع أصحابه الأفارقة وعسكر بهم في مكان يعرف بسبخة سجّوم في أوائل سنة ١١٢٧هـ / ٧٤٥م^(١) ، وقدر أن ينتهز الفرصة ويخلص إفريقية من القيسية جملة ، فكتب إلى حنظلة ومن معه يطلب اليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد ، وأمهلم ثلاثة أيام . وشاء حنظلة أن يقاوم ، ولكنه رأى قلة من معه ، وبلغته أنباء اضطراب الأمر على الأموية في الشرق ، فقرر ترك إفريقية والعودة إلى المشرق .

ويبدو أن حنظلة لم يقرر ذلك مختاراً بل مضطراً ، فقد بدا له من اختلاف عرب إفريقية عليه وتواطئهم مع عبد الرحمن بن حبيب ما أخافه وزهده في المقام بهذه البلاد ، فقد حدث بعد انتصاره في موقعي القرن والأصنام أن أمر قائده على طرابلس معاوية بن صفوان أن يخرج لحرب نفر من الصفرية من نفزاوة ، فخرج اليهم وحاربهم وانتصر عليهم ولكنه قتل في المعركة ، وأرسل بعد ذلك بقليل نفراً من وجوه العرب إلى عبد الرحمن ليصالحوه ويردوه إلى الطاعة ، فاستألفهم هذا بالأموال ، وانقلبوا على صاحبهم الذي أرسلهم^(٢) ، وضائق الأمور بحنظلة ، واستبان أن أمر بني أمية كله إلى زوال ، وطمع فيه عبد الرحمن بن حبيب ، فجمع أصحابه ومضى بهم إلى دمشق .

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٩

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٣

واحتمل عبد الرحمن بن حبيب القيروان واستقر بها أميراً ، وصار الأمر في المغرب بعد هذا الكفاح الطويل للعرب الأفارقة بعد نزاع طويل مع البربر حيناً والعرب المشاركة القيسية حيناً آخر ، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ١٢٧ هـ / أبريل ٧٤٥ (١) .

كان انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على افريقية ختاماً للنزاع بين القيسية واليمينية في افريقية ، لا لأن الفريقين انتهيا الى التفاهم والسلام بعد هذه المنازعات الخطرة ، بل لأن توالى الحروب مع البربر حيناً وبينهم وبين أنفسهم حيناً كان قد انتهى باضعاف العرب جميعاً في المغرب ، فلم يعد لديهم من القوة ما يمكنهم من طلب السيادة على هذه البلاد الواسعة . ثم ان زمان سيادة العنصر العربي في الدولة الاسلامية كان قد ولى بزوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مكانها بعد ذلك بسنوات (١٣٢ هـ ٧٤٩ - ٧٥٠) ، فلم يعد لعرب افريقية — قيسية ويمينية — أى رجاء في أن تقف الدولة الى جانبهم وتؤيد هذا الفريق منهم أو ذاك على هذا النحو الذى جرى عليه خلفاء بنى أمية . ولم يكن انتصار عبد الرحمن بن حبيب انتصاراً للعنصر العربي في الواقع ، وانما كان انتصاراً لهذه الطائفة الافريقية من العرب التى كانت زناته تؤيدها وتشد أزرها ، ولهذا نستطيع القول أن انتصاره كان انتصاراً لزناته من بعض الوجوه ، ومصادق ذلك أن الأمر لم يصف لعبد الرحمن بن حبيب شهراً واحداً بعد ولايته تلك ، فقد بايع لمروان بن محمد ، فلما قتل بايع لأبى جعفر المنصور ثم اختلف معه وخلع طاعته ، واستقل بأمرة ، ولم يلبث النزاع أن دب بينه وبين من كان معه من العرب ، وانتهى الأمر بقتله على يد أخيه الياس بن حبيب سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ - ٧٥٦ م ، ولم يكن الياس بأحسن حظاً من أخيه ، لأن الحرب استعرت بينه وبين ابن أخيه حبيب ، وقتل بعد ستة أشهر ، وخلفه ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٠ — الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ — ٣٥ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ، ص ٤١ — ٤٣ — ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ص ٤٣ — ابن الابار ، الحلة السراء ، ص ٥١

الذي لم تدم ولايته أكثر من ثمانية عشر شهراً كلها حروب ومنازعات، وانتهى أمره وأمر بيت حبيب كله في المحرم سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م . وسنحت الفرصة لورجومة إحدى قبائل البربر الزناتيين ، فدخل رجالها القيروان وسيطروا على افريقية فترة قتلوا من العرب خلالها نفراً كثيراً ، ولم ينته أمرهم إلا بعد أن أرسل أبو جعفر المنصور واليه على مصر محمد بن الأشعث في أربعين ألفاً : « ثلاثين ألفاً من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام » كان فيهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي الذي صارت إليه الأمور كلها في المغرب في جمادى الآخرة سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ - ٧٦٦ م بفضل من كان معه في جيشه من الخرسانيين ، وبفضل من انضم إليه من البربر ^(١) .

بيد أننا ينبغي أن نقرر أن انتصار عبد الرحمن بن حبيب ومن آزره من العرب الأفارقة والبربر لم يكن ختاماً لثورة البربر على العرب ، لأن حركات الخوارج الصفرية والاباضية استمرت بعد ذلك أشد ما تكون استعارة وقوة . ذلك أن الأمر لم يكد يستقر لعبد الرحمن في القيروان حتى ظنت قبائل البربر أن أمر العرب قد ولى مع أمس الدابر جملة ، وأنهم الآن في حل من أن يستقلوا بما يسيطرون عليه من النواحي ، فقام في كل ناحية زعيم بربري وأعلن نفسه أميراً : قام عروة بن الوليد الصدي واستولى بجاعات من البربر على تونس ، وأعلن أبو العطف الأزدي استقلاله بطييناس ، واقتطع ثابت الصنهاجي وقومه باجة لأنفسهم وانضم إليه عبد الله بن سقرديد ، وقامت جماعات من اباضية هواره يقودها عبد الجبار والحارث الهواريان واستولت على ناحية طرابلس وقتلوا عاملها بكر بن عبس القيسي ^(٢) ، وخاض عبد الرحمن بن حبيب وأخوه الياس من بعده مع هؤلاء الثائرين حروباً طويلة عنيفة استمرت سنوات ، ثم وقع الخلاف بين أفراد بيت بني حبيب أنفسهم ، فتحارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه الياس ، وتعصب لكل نفر منهم فريق من العرب الافريقين حتى

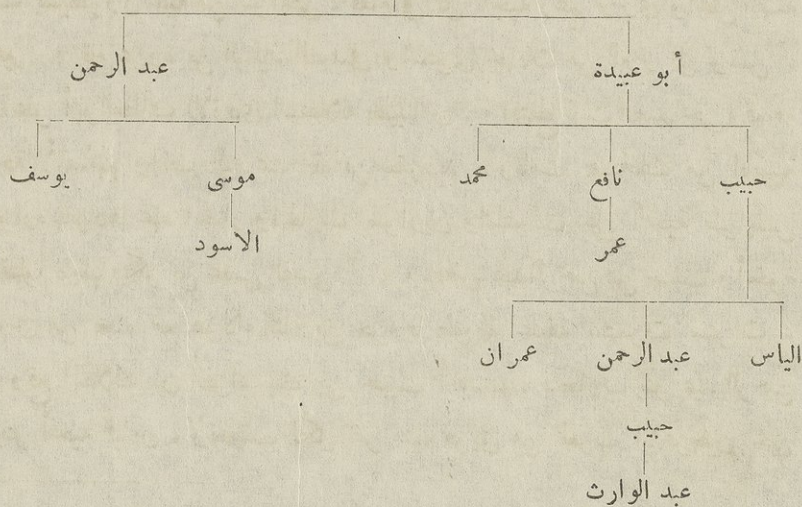
(١) انظر التفاصيل في : النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ص ٤٠ — ٤٦

(٢) ابن عذارى ، البيان : ج ١ ص ٤٨ وما يليها — ابن خلدون ، المعبر ، ج ١ ص ١٣٨ —

النويري ، نهاية ، ص ٣٨ وما يليها .

اضطربت أحوال البلاد واشتعلت ناراً من جديد ، وانتهى الأمر بأحدهم وهو عبد الوارث قائد جند الياس بالالتجاء الى ورجومة احدى بطون نفزة والاستعانة بها على ادراك ثأر عم أبيه الياس من ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن ابن حبيب^(١) ، فنصرته ورجومة وشيخها عاصم ، فسار اليه حبيب ليؤدبه فانهزم انهزماً قبيحاً واضطر الى الفرار الى قابس ، وأصبحت هذه القبيلة الزناتية سيدة اقليم أفريقية . فعجل شيخها عاصم بالمسير الى القيروان ، وخرج أبو كريب جميل بن كريب قاضيها لحبيب بن عبد الرحمن للقاء ورجومة يقودها عاصم وأخوه مكرم ، فثبت لها ثباتاً كريماً بظاهر القيروان ، ثم انهزم وهلك هو ومن بقي معه ، ودخلت ورجومة القيروان في ذى الحجة سنة ١٣٥/٧٥٣ م ، وهكذا سقطت عاصمة المغرب الاسلامي في يد البربر الزناتيين ، فكان هذا الحادث ايذاناً بزوال سلطان العرب عن المغرب جملة ، وبدا بوضوح أن دولة الخلافة لا بد متخلفة عن هذا القطر التسميح راضية أو كارهة في القريب

(١) اليك شجرة بيت عقبة بن نافع في افريقية .
عقبة بن نافع الفهري



انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٣ — ٢٠٣ ابن خلدون ، البر ، ج ١ ص ١٠٩ وما يليها و ص ١٣٠ وما يليها ابن حذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٥٠ وما يليها ، النوبرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٤٠ — ٤٣

أو في البعيد : فقد اشتدت الخصومة السياسية بين العرب والبربر ولم يعد هناك سبيل لاصلاح النفوس ، واختلف العرب على أنفسهم فضعف أمرهم وهانوا في نظر رعاياهم . ولم يلعب بيت عربي في هذا الدور من تاريخ المغرب الاسلامي دوراً يقرب من الدور الخطير الذي لعبه بيت عبدالرحمن بن حبيب ، فقد كان طموح هذا العربي الفهري وتعصبه للعرب الافريقيين البلديين سبباً مشجعاً للخوارج على موالاة جهودهم ، ولم يكن في نفسه بالرجل الثابت ولا القدير ، وكان فيه ميل الى الظلم ، فلم يلبث الناس أن نفروا منه ، ونهض له أخوه الياس فقتله واستبد بالامر ، فكان شراً من عبدالرحمن وأعتى ، واختلط الامر عليه ووثب به أبناء بيته ، فلم يلبث أمر بني حبيب كلهم أن تفرق وضاع ، وضاع معه سلطان العرب السياسى على البلاد ، ولو لم يتداركها الله بعد ذلك بسنوات قلائل بمحمد بن الاشعث ثم بالاعلم بن سالم بن عقال لما عاد السلام اليها أبداً .

ثم أن دخول ورجومة القيروان واستبدالها بشئون افريقية لم يكونا إلا مظهر ألقوة البربر الصفرية وانتشار أمرهم انتشاراً هياً لهم السيطرة على البلاد ، وكانت سيادة هذه القبيلة شراً خالصاً على افريقية وأهلها ، لأن كراهم للعرب بلغت مبلغاً جعلهم يستبيحون كل محرم ، وكانت دعوة الصفرية قد أتهم ولما يتمكن الاسلام من نفوسهم بعد ، فأضلتهم وأخرجتهم عن الاسلام جملة ، ومن ثم لا غرابة في أنهم حينما دخلوا القيروان قتلوا من بها من قریش وساموهم سوء العذاب ، وربطوا دوابهم في المسجد ١٤٠ / ٧٥٧هـ - ٧٥٨ م^(١) . فأثار عملهم هذا اخوانهم بربر نقوسة ، وكانوا أباضية ، فساروا يقودهم شيخهم أبو الخطاب ، فأخرجوا ورجومة من القيروان ، وأنزلوا برجالها مذبحاً مروعة وقضوا على سيطرتهم على افريقية . ومن طريف ما يلاحظ أن أبا الخطاب بدأ عمله بخلق طاعة العباسيين اعلانا منه للطابع البربرى لحركته ، ولما استقر الأمر له لم يقم نفسه أميراً على القيروان ، ولم يتخير عربياً ليقيمه في الامارة ، وانما تخير رجلاً من أصل فارسي هو عبد الرحمن

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٤٤

ابن رستم ، وكان خارجياً اباضياً شديداً العصبية لمبادئ الخارجية (١٤١ هـ - ٧٥٨ م) ولم يستطع محمد بن الأشعث قائد المنصور دخول القيروان وإعادة المغرب الى طاعة المشرق إلا بعد حرب عنيفة وموقعة فاصلة مع نفوسه على مقربة من تورغه إحدى قرى طرابلس جمادى الأول ١٤٤ هـ يونيو ٧٦١ م^(١) ، وقد هرب على أثرها عبد الرحمن بن رستم الى أقصى المغرب الأوسط وتحصن بناحية جبل جزول عند ناهرت وكانت هناك إذذاك بقايا حصن روماني فعمرها واستقر فيها يؤيده البربر الأباضية ، وأعلن نفسه اماماً ، وأنشأ بذلك الدولة الرستمية ، ولم يلبث أن سيطر على المغرب الأوسط كله^(٢).

وحذا حذوه بربري خارجي آخر هو أبو قره شيخ قبيلة بني يفرن وكان صفرياً ، فأعلن نفسه اماماً في نواحي تلمسان . وهكذا استقلت كل جماعة من البربر في ناحية ، ولم يبق للعرب إلا سلطان ضئيل بقي لبعض المضربة في طواهر القيروان ، وظل من السيطرة في لجانلية عربية صغيرة أخرى كانت تقيم على الطاعة في نواحي طبنة وهدنة ، ولم يهدأ أمر البلاد إلا على يدى ابراهيم بن الأغلب الذي أقام دولته بسواعد بعض رجال العرب المشاركة تؤيدهم فرق من الجند الخرسانية وبعض القبائل الصنهاجية المنافسة للزناتية الخارجية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، وعلى يديه خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة .

كانت ثورات البربر على العرب إذن ختاماً لسيادة هؤلاء العرب على البلاد ، فلم يصف لهم الأمر فيها بعد ذلك إلا خلال فترات صغيرة متباعدة وفي نواحي محصورة من البلاد ، ولم تنزل قبائل البربر تتداعى إلى الثورة قبيلة بعد قبيلة ، ولم تنزل نواحي بلادهم تخرج عن طاعة الدولة المركزية ناحية بعد ناحية ، حتى خرج البربر جميعاً وبلادهم جميعاً عن طاعة العرب والدولة الإسلامية المركزية جملة .

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٦١ — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٤ — ٤٦

(٢) البيان المغرب ، ج ٢ ص ٦١ وما يليها — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٤ — ٤٦

وانتهزت جماعات من برابر مكناسة — إحدى بطون ضريسة — فرصة ابتعادها عن القيروان وانشغال العرب بمنازعاتهم مع البربر ومع أنفسهم ليستقلوا بناحيتهم وليقيموا لأنفسهم دولة . كانت هذه البطون من نقوسة تسكن على منابع نهر مَلُوِيَّة عند الموقع الذي ستقوم فيه بلدة سَجْلَمَاسَة فيما بعد ، وكانت هذه القبائل تسيطر على قريتي تازا وتسول ، وكانتا إذذاك من منازل الرعاة ، فأقبل عليها في مراعيها رجل بربري ممن حجج الى بيت الله الحرام وأخذ أصول الدين على فقهاء المدينة ، واسمه أبو القاسم سَمَكُو بن وسول بن مَسْلان بن أبي إِزول ، ويبدو أنه كان قد مال الى ناحية الخارجية ، فدعا النفوسيين الى مبدئه فانضموا اليه وتعصبوا له ، ولم يلبثوا أن تقضوا طاعة الخلافة في سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ — ٧٥٨ م بقودهم شيخهم عيسى بن يزيد الاسود ، ثم اتخذوا سَجْلَمَاسَة عاصمة لهم فامتدت وتمددت ، ومات عيسى خلفه أبنة اليسع وخلف هذا أبنة مدرار ، وفي عهده قوى أمر هذه الدولة البربرية التي عرفت في التاريخ بدولة بني مدرار . وإنما فصلت أمر نشوء هذه الدولة لأن ذلك يلقى ضوء على التطور الباطني الذي كان يجري في المغرب الاسلامي اذ ذاك ، وواضح جداً أن دعاة الصفرية والخارجية هم أصحاب فضل كبير في نشر الاسلام في نواحي المغرب الاقصى والوسوس ، كما رأينا في حالة هذا الداعية أبي القاسم سَمَكُو ، وكما سيحدث في حركات المرابطين والموحدين فيما بعد ^(١) .

*
* *

وقد حاول ا. ف جوتييه جغرافي المغرب ومُفلسف تاريخه ، أن يدرس هذه الحركات الثورية ويلتمس لها أصولها البعيدة في تاريخ المغرب وتكوينه الجنسي ، فانهى الى آراء طيبة لا بد من ايرادها في ختام هذا البحث ^(٢) . يرى جوتييه أن هذه الثورات هي أخطر حادث في تاريخ المغرب الاسلامي قبل الحركة الفاطمية . فلنعرض آراءه في تحليل أسباب هذه الحركات لأنها تكشف

(١) راجع عن هذه الاحداث : ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٦٠ وما يليها — النويري ، نهاية الارب ، ص ٤٤ وما يليها — ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ١٣٩ وما يليها .
(٢) E. F. GAUTIER, *Le Passé de l'Afrique, du Nord*, pp. 260 Sq (٢)

لنا في الواقع عن خصائص هامة ينفرد بها هذا التاريخ المغربي، وتلقى على الثورات الخارجية البربرية نفسها ضوءاً كشافاً^(١).

يرى جوتييه أن هذه الثورة الخارجية في المغرب إنما هي في الواقع الاالدونانية التي روعت أمن المغرب النصراني من قبل. وتفصيل هذه الحركة الدونانية في إجمال هو أن «دونات» أسقف كازنوار إحدى بلاد المغرب الأوسط أبي أن يعترف بصقليان (Cicilianus) بطريقاً لقرطاجنة، لأن من انتخبوه كانوا قسماً مشكوك في صلاح عقيدتهم، فغضب عليه صقليان، وثار بينهما الخصومة، وتعصب لكل منهما فريق، وانقسم نصارى افريقية شيعتين، شيعة صقليان، وشيعة الدونانيين المنشقين أو الخارجين عليه.

والخارجية الإسلامية في نظر جوتييه، ليست في الواقع شيئاً شبيهاً بالخارجية الدونانية النصرانية، فالخوارج المسلمون لا يخالفون غيرهم من المسلمين في أمر من أمور العقيدة — كما تخالف البروتستانتية الكاثوليكية مثلاً — وإنما يخالفونهم في عدم الاعتراف بخلافة معاوية، ويقولون بأحقية علي وأولاده في الخلافة، بالضبط كما كان الخلاف بين دونات وصقليان خلافاً حول شخص صقليان وحقه في البطريقية، والحركات الدينية الخطيرة — سواء في المغرب النصراني أو في المغرب الإسلامي — لم تنشأ عن آراء أو عقائد خاصة بل عن تعصب وانتصار لأشخاص، لأن أهل المغرب لا يكادون يحفلون للعقائد في ذاتها، ومدار الأمر كله عندهم هم الأشخاص.

(١) لم يبحث أحد هذه الحركة بمثل ما بحثها به جوتييه من العمق والشمول، وقد انتهى من بحثه إلى نظرية خاصة فسّر على أساسها تاريخ المغرب الإسلامي كله، وقد أخذها عنه جميع مؤرخي المغرب الفرنسيين، ولهذا رأيت أن أعرض لها في شيء من الأسهاب. واليك مراجعته التي استند إليها في هذا البحث تماماً للفائدة وتبهيلاً للمراجعة: أبو زكريا: تاريخ أبو زكريا، ترجمه وعلق عليه Emile Masqueray (الجزائر ١٨٧٨)، ص ٦٧ وما يليها من المقدمة — ابن خلدون، العبر، (ترجمة دي ساليان) ج ١ ص ٢١٦ و٢١٨ — ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها — ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٥١ وما يليها — ابن الأثير: حوادث المغرب التي جمعها فانيان Fagnan وترجمها إلى الفرنسية في كتاب،

Annales du Magrab et de l'Espagne، ص ٦٣

وايمان البربر يمتاز الى ذلك بتطرف بالغ وتمسك بالظواهر يجعلهم يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها ، ويصرون على ذلك اصراراً لا يكاد يقبل تنازلاً . وهذه كلها أمور نلاحظها في الدونانية كما نلمسها في الخارجية : فقد كان الدوناتيون متعصبين لمبادئهم تعصباً أعمى لا يكاد يصدق ، وكانوا ينتحرون جماعات في سهولة لا يكاد يتصورها العقل ، أملاً في أن يغتنموا الشهادة ويرقوا الى السماء ، بل بلغ بهم الأمر أن كان القلق يساورهم في بعض الأحيان حينما يعلمون أن لهم الحق في قتل أنفسهم واغتنام الشهادة على هذا السبيل « الهين » ، فكانوا يسألون أحد المارة أن يقتلهم بيده ! وويل له إذا أبى ! فأما عند خوارج المغرب المسلمين ، فلم يصل الأمر الى حد اغتنام الشهادة بالانتحار ، بل كانوا يتهافتون على القتال في سبيل العقيدة تهافت من لا يعنيه أمر حياته ، نجد هذا واضحاً عنيفاً عند غلاتهم كالصفرين ومعتدلاً بعض الشيء عند معتدليهم كالأباضيين . هذا مع العلم بأن تفانى هؤلاء الآخرين في العقيدة كان يذهب بهم إلى حد الغاء شخص الانسان الغاء تاماً أمام الخالق . ولقد أحسن ماسكرائى حينما قال إن الخارجية هي الدونانية نُقلت من اطار مسيحي الى اطار إسلامي ، ولا يهمننا الاطار ولا الحادث الذي أثار الحركة في المسيحية أو في الاسلام بقدر ما تهمننا الظاهرة ومغزاها الذي يتلخص في الحقيقة التالية : وهي أننا نجد عند نفس المغاربة أسلوباً واحداً عميقاً في الاحساس بالله وقوته ، وأننا نجد هذا الاحساس ظاهراً في صور مختلفة متتابعة ، فذلك غريزي عند هذا الجنس .

وهو — أى جوتيه — لا يهتم لذلك بالناحية الدينية للموضوع — فهي في نظره حادث عارض — والمهم عنده هي الغايات والنزعات المادية التي تستتر دائماً خلف ستار العقيدة ، ولقد طالما حاول الناس أن يصلوا إلى المعنى السياسى والاجتماعى للحركة الدونانية ، وقد وفقوا ؛ وليس بالعسير كذلك الوصول إلى النزعات السياسية والاجتماعية التي أدت إلى الثورة الخارجية . ثم يقول إن ابن خلدون نفسه قد كشف عن هذه النزعات بعد نظره وزكاته ، وذلك حيث قال : إن الخارجية انتشرت على عجل في البلاد

وأصبحت سلاحاً في يد أهل الفتنة يحاربون به الدولة ، وهو يقصد بالدولة هنا دولة الخلفاء التي يمثلها العمال ، فهؤلاء الخارجيون كانوا يلتصقون الأنصار بين الطبقات الدنيا من البربر .

ولم تكن الدوناتية في الواقع إلا حركة بربرية سياسية اجتماعية أساسها ديموقراطي ، إذ كانت في الواقع ثورة شعبية قام بها فقراء الناس المستضعفون . وطبيعياً أن الشعب الذي قام بحركة الخارجية لم يكن هو نفسه الشعب الذي قام بالدوناتية ، فقد تغيرت الأحوال بتغير الأزمنة ، وإنما كان عماد الحركتين هؤلاء الناس الذين كان تصصوؤهم صورة نظرية لحرمانهم من الخيرات الدنيوية ، وكان هذا التصوف يخفي خلفه — بطبيعة الحال — انفجاراً هائلاً لمطامع لم تسعفها الظروف بالتحقق .

وكانت الخارجية كذلك ثورة من البربر أهل البلاد على السادة الأجانب ممثلين هذه المرة في صورة الخلفاء المشاركة .

ثم يمضى جوتيهيه يحلل عناصر الحركة الخارجية ، لأنه لا يريد أن يكتفى بتسميتهم بربراً وكفى ، بل يريد أن يعرف أى فرق من البربر نهض بعبء الحركة ، ويقرر بوضوح أن الذين قاموا بالحركة كانوا في الغالب بربراً زناتيين ، فقد انفجرت الثورة أول الأمر في طنجة خلف ظهور الجيوش الإسلامية الغازية في إسبانيا ، ثم لم يلبث لهبها أن وصل إلى القيروان ، وقد وقعت موقعة الأشراف على مجرى « شلف » ، ووقعت المعركة الثانية التي هلك فيها كئثوم بن عياض على نهر « سبو » ، ووقعت الثالثة التي انتصف فيها العرب لأنفسهم عند القرن على مقربة من القيروان سنة ٧٤٢ ، وأما الرابعة فقد كانت إلى الشرق مما يلي ذلك ، وفيها استولى الخارجيون على طرابلس ، ثم نشهد بعد ذلك رد فعل عربي عنيف يقوم به عبد الرحمن بن حبيب . أى أن الحوادث البارزة في الحركة كلها دارت حول طرابلس وتونس وتلمسان (بين سنتي ٧٤٣-٧٥٢) وفيما بين سنتي ٧٥٧-٧٥٨ ينتقل مركز الحركة إلى القيروان ، فيستولى عليها برابر ورجومة الخارجيون ويعيثون فيها فساداً ، ثم يطردهم عنها برابر آخرون ، ويستولون عليها . ثم ينهض العرب لحرب الخارجيين من جديد

يقودهم محمد بن الأشعث ويحرز النصر في صُرت من نواحي طرابلس ، ثم يسير الى القيروان فيحتلها ، ولكنه لا يوفق الى النصر عند تلمسان التي ينتقل اليها مركز الحركة بفضل أبي قرة اليفرنى (سنة ٧٦٥) ، ثم يعود الخارجيون فيستولون على طرابلس ، ويحاصرون القيروان ، ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار الخارجيين لطبنة في إقليم هُدنة ، ويذكرون أن عاملها عمر بن حفص ظل زمناً طويلاً محاصراً (سنة ٧٧٠) حتى لقي حتفه على أسوار القيروان (سنة ٧٧١) ، ثم يستمر الأمر بين أخذ ورد بين العرب والخارجيين حتى ينتهى الأمر الى يد بنى الأغلب في سنة ٨٠١ ، فتهدأ أحوال البلد ويسودها السلام قدراً من الزمان . فمراكز الثورة هي طنجة ووادي سبو وإقليم تلمسان ووادي شلف وهُدنة وجنوبي تونس وطرابلس ، أى انها تقع جميعاً في نطاق السهول والهضاب العالية ، أى في مواطن زناته ، لقد وقعت الثورة كلها في أوطان زناته على وجه التقريب .

ثم يمضى جوتييه مؤيداً رأيه ، فيذكر أن ابن خلدون وابن عذارى يؤكدان أن عبء الحركة الأولى حملته برغواطة (ويشير الى أن برغواطة هذه قد كفرت بالقرآن فيما بعد ، وأقام رجالها في إقليم الشاوية ديناً جديداً يخالف الاسلام) ، ومغيلة وهوارة وبنى يفرن ، ويناقش النصوص مناقشة يخرج منها بأن قليلاً جداً من صنهاجة قد شاركوا هذه الحركة ، وأنها لهذا ينبغى أن تعتبر حركة زنانية صرفة .

ثم يستطرد جوتييه استطراداً بعيداً يحلل فيه الحركة من الناحية الاجتماعية ، ولكننا نكتفى بهذا القدر الذى أوردناه لأنه يلغى ضوءاً كاشفاً على بعض العناصر النفسية في هذه الحركة البربرية الخطيرة ، ويهمنى من كلامه قوله انها كانت حركة زنانية ، وهذا معقول وطبيعى ، فقد كانت زناته قد أعانت المسلمين وانضمت اليهم من أول الأمر أملا في أن تنتصف بهم على الروم والنصارى والأفارقة وصنهاجة ، وأن تستعيد في ظلهم بعض ما فاتها في عهود هؤلاء ، ففاجأ العرب رجالها بهذا العسف الذى رأيناه ، فخنحت نفوسهم الى الثورة . ويهمنى كذلك قوله أن هذه الحركة طبيعة مركبة في النفس البربرية :

فهي طبيعة تفتان وتصوف واستخفاف بالحياة . ويهمنا كذلك إشارته الى ناحيتها القومية ، فالواقع أن الذين قاموا بها كانوا ينكرون على العرب هذا التصرف المطلق في شئون البلد . ويهمنا أخيراً ربطة هذه الحركة بأمثالها في عهود الروم وسيره بالحركة الى مطالع العهد الأعلى .

ولم تكن الأحوال في الأندلس ^{***} إذاك بأحسن مما كانت الأندلس عليه في المغرب . كانت هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقي وخيرة رجاله في رمضان سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م قد أوقعت البلد في أزمة كبرى : ذلك أن اليمنيين وأحلافهم من المدنيين انتهزوا فرصة موت الغافقي واشتغال عامل افريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن قطن بن نفيلة بن عبد الله الفهري في أول شوال سنة ١١٤ هـ ، ويبدو أن عبيدة بن عبد الرحمن عامل افريقية أقر عبد الملك في ولايته لأن العلائق لم تكن طيبة بينه وبين أنصار عبد الرحمن الغافقي ^(١) .

لا تمدنا المراجع العربية بمعلومات وافية عن عبد الملك بن قطن الفهري أعمال عبد الملك في ولايته الأولى ، ولكن ايزدور الباجي يذكر أنه أساء السيرة وآذى المسلمين والنصارى معاً ، وأن من معه من اليمينية عاثوا في البلاد فساداً وأكثروا من الشغب والثورة عليه ، وأنهم شرهوا الى الأموال شرهاً اضطرب معه عبد الملك الى عسف الناس عسفاً أثار النفوس وأسخطها ^(٢) . فلما تولى عبيد الله بن الحبحاب أمر افريقية بعث على الاندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان رجلاً قيسياً صالحاً محباً للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها في شوال سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م ^(٣) .

ويذكر ايزدور الباجي أن عبد الملك بن قطن الفهري ومن معه من المدنيين حاولوا أن يعارضوا عقبة ويحدثوا عليه الشغب ، فاضطر الى القبض على عبد الملك

(١) انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، آخر ص ٢١٦ وأول ٢١٧

(٢) ايزدور ، فقرة ٦٠

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧ ، ٢٨ —

والقائه في السجن ، ثم نقل عددا عظيما من المدنيين الى افريقية لكي تهدأ البلد وتستريح من نزوعهم الدائم الى السلطان والفوضى ^(١) .

ويدو أن الأحوال استقرت لعقبة في الأندلس بعد ذلك فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد « بأحسن سيرة وأجملها وأعظم طريقة وأعدلها » ^(٢) ، واستطاع كذلك أن ينصرف الى الفتوح في صقلية وفيما وراء البرانس بقية أيام حكمه الذي طال سبع سنين ^(٣) .

في ذلك الحين كانت ثورة البربر في إفريقية على أشدها ، وكان عبيد الله ابن الحبحاب قد انصرف عنها وتولاها كلثوم بن عياض ، وشغل القيسية في إفريقية عن أبناء عمومتهم في الأندلس ، فضعف أمر عقبة ومن معه ، وبدأ اليمينيون ومن معهم من المدنيين يتطلعون إلى السلطان من جديد ، وقد أمكنتهم الفرصة في أوائل سنة ١٢٣ هـ إذ مرض عقبة وطال مرضه حتى أشفى على الموت ، والغالب أن اليمينيين ضغطوا عليه وأرغموه على إقامة عبد الملك بن قطن خليفة له إذا توفاه الله ، وقد كان ، وعاد السلطان الى ابن قطن ومن معه من اليمينيين والمدنيين ^(٤) .

والظاهر أن نفرا من دعاة الثورة البربرية الافريقية خف إلى الأندلس ليثير بربرها على عربها ، ولم يكن البربر في الجزيرة الأندلسية مطمئنين إلى العرب ، لأن هؤلاء الآخرين استبدوا دونهم بالأمركله ، مع أن معظم فضل الفتح يعود الى البربر وحدهم . ويذهب نفر من المؤرخين كذلك الى

(١) يزودور فقرة ٦١ ، ويراد بالمدنيين هنا جماعات من أهل المدينة المنورة من الأنصار هاجروا الى الأندلس واستقروا فيها ، وأنشأوا لانفسهم شيعة سياسية قوية ، وكانوا يؤازرون اليمينيين ويحتمون فيهم .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ص ٢٩

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨

(٤) يزودور الباجي ، فقرات ٦١ — ٦٣ يذكر ابن عذارى أن عقبة استخلفه (البيان ج ٢ ص ٢٩) ويذهب ابن عبد الحكم الى أن عبيدة بن عبد الرحمن هو الذي رد عبد الملك الى ولاية الأندلس (فتوح ، ص ٢١٧) ، أما ابن القوطية فيؤكد أن عبد الملك ومن معه من الينية اجتمعوا على عقبة وخلعوه ، فهو يتفق مع يزودور في ذلك ، وقد أخذنا بروايتهما .

أن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع الأندلس ، ولم يتركوا للبربر غير الغيا في
والجبال القاحلة في الشمال والشمال الغربي^(١) . وليس ذلك صحيحا على إطلاقه ،
لأن جماعات بربرية كثيرة كانت مستقرة في أخضب نواحي الأندلس
في الجنوب والشرق والغرب ، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون
قصرأ عليهم لكثرة من نزلها من بطونهم وعشائرهم ، ثم ان العرب لم يكونوا
من الكثرة بحيث يستطيعون الانفراد بكل سهل بلد عظيم واسع كالأندلس ،
ثم ان الكثيرين منهم (أى من العرب) كانوا أهل جهاد مقيمين دوما في منطقة
البرانس وما وراءها عند أربونة ، فلم تكن بقية العرب لذلك من الكثرة بحيث
تستطيع احتلال سهل الأندلس الواسعة في الشرق والجنوب والوسط والغرب .
ثم ان المراجع تتحدث كذلك أن جماعات كبيرة منهم كانت قد استقرت
في أقصى الشمال عند لاردة واسترقة و« المداين التي خلف الدروب » كما يقول
صاحب الأخبار المجموعة^(٢) أى في نواحي الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن
الأسبان النصراني في الشمال ، فتعليل ثورة البربر على العرب في الأندلس
بأن هؤلاء استبدوا دونهم بخيرات البلد وحرموهم منها جميعا مبالغة لا تؤيدها
المراجع ، فأما غضب البربر فسببه استبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم البربر
شعبا محكوما لا ينبغي أن يترك له أى نصيب في الحكم أو في إدارة الأمور ،
ولم يكن البربر ليعتبرون أنفسهم بأقل من العرب دينيا ولا كفاءة ولا فضلا ،
فقد كانوا هم الذين حملوا معظم عبء الفتح ، وكان منهم طريف وطارق
وهما صاحبا الفضل الأول فيما أصاب الاسلام في الأندلس من نصر ، ولم يقف
الأمر عند مجرد الاستبداد بالأمر بل تعداه الى سوء المعاملة والاهانة ، فكان
العرب يوقعون بهم أقسى العقوبات لأتفه الأسباب ، فاذا جرأوا على الشكوى
كان عقابهم أشد وأقسى^(٣) .

Dozy, *Hist. des Musulmans d'Espagne* I, p. 161 (١)

» , *Recherches* I, pp. 118-119.

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ وراجع ذلك المقال القيم الذي كتبه سيزار دوبلر
عن منازل البربر في الجزيرة الأندلسية .

CESAR DUBLER, *Über Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel*, in *Festschrift J. Jud*, Zürich 1943.

Dozy, *Recherches*, I. p. 119.

(٣) ايزودور ، فقرة ٤٤

ثم ان استبداد القيسية بالأمر كان حرياً أن ينفر البربر ، إذ كان القيسيون قوما ذوى عصبية شديدة ، لا يكادون ينظرون لغيرهم نظرتهم الى ناس مثلهم ، وقد رأينا موقفهم من اليمنية ومن البربر في افريقية ، وليس لدينا وثائق تدلنا على معاملتهم للبربر في الأندلس ، ولكن الأدلة كلها تدل على أنهم أساءوا معاملتهم ونفروا نفوسهم ، وكان اليمنيون أقرب الى نفوس البربر منهم ، لأنهم كانوا معظم الوقت مضطهدين مثلهم^(١) . وهذا لا يمنعنا من أن نقرر أن هؤلاء اليمنيين كانوا اذا وصلوا الى السلطان أفسدوا من أمره أشد من كان القيسيون يفعلون ، لأن عيب القيسيين كان كبرياء وصلفا ، في حين كانت عيوب الكلبيية اليمنية الظاهرة جشعاً الى المال وميلاً الى الفوضى وعجزاً عن التنظيم وحسن الادارة .

طبعي اذن أن يبادر بربر الأندلس الى الثورة حينما تبلغهم أنباء ثورة أبناء عمومتهما واشتباكهم مع العرب في الحرب في افريقية . فيقول صاحب الأخبار المجموعة — وروايته على قصرها أكثر ما بين أيدينا تفصيلاً — : « فقضى أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدو على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا في أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوه ، وأخرجوا عرب أسترة والمدائن التي خلف الدروب ، فلم يزع ابن قطن الا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف الى وسط الأندلس ، الا ما كان من عرب سرقسطة وثرهم ، فانهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهجم عليهم البربر^(٢) . . » ويزيدنا صاحب فتح الأندلس وضوحاً فيقول : « وتطاولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية وأسترقه والمدائن التي خلف الدروب ، وقتلوه وطردوهم لكثرتهم هناك وقلة العرب^(٣) » ولا يزيدنا ازودور وضوحاً كثيراً ، وان كان

(١) يفهم هذا من قول ابن القوطية مثلاً : « وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين الشاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ، ويقولون لأهل الشام : « بلدنا يضيق بنا فأخرجوا عنا ! » ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٧

(٢) الأخبار المجموعة ص ٣٨

(٣) فتح الأندلس ص ٣١

يشير الى أن العرب استبدوا بالبربر وآذوهم وعاملوهم معاملة قاسية ، فأسخطهم ذلك ودفع بهم الى الثورة ^(١) .

ولكن دوزى يضيف من عنده كثيراً ، فيزعم أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرض ، ولم يتركوا للبربر غير النواحي القاحلة في الشمال ، ويمضى في المبالغة — على عهده — فيذكر أن بربر الأندلس تلقوا أخبار ثورة أبناء عمومهم في العدو الافريقية بقبول عظيم ، وأن دعاة خارجيين ذهبوا الى الأندلس ليحضوا البربر على القيام على العرب واستئصالهم جملة ، فلم تلبث أن انفجرت ثورة دينية سياسية في اقليم جليقية امتدت الى شمال الأندلس جميعه عدا اقليم سرقسطة ، ولسنا نعلم من أين استقى هذا كله ، وليس بين أيدينا الا ما أوردناه من النصوص ^(٢) .

ومهما يكن من الأمر فقد ثار بربر شمال الأندلس على عربها المقيمين في نواحي جليقية واسترقه والنواحي القاصية من أشتريس وبعض مناطق الغرب مثل ماردة وقورية وطلبيره ، فأما اقليم سرقسطة فلم يجرؤ البربر فيه على الوثوب بالعرب ، لأن العرب هناك كانوا أكثر عدداً منهم . وأسرع من بقى من العرب في هذه النواحي بالهروب إلى وسط الأندلس ^(٣) ، فاذا انتصر البربر هذا النصر الأول فقد انتظمت قواهم في ثلاثة جيوش كبيرة : وجهة الأول طليطله والثاني قرطبة والثالث الجزيرة الخضراء ليمتصل بالبربر عبر الحجاز . ومثل هذا الترتيب لا يمكن أن يصدر إلا عن قيادة واحدة نظمت صفوف الثائرين ورسمت لهم وجهة واضحة معينة ، لأن الاتجاه إلى الجزيرة الخضراء معناه محاولة قطع مواصلات العرب مع المشرق لحصرهم حصراً لا مخلص لهم منه ، وهذا أمر لا يصدر إلا عن رأس مفكر مدبر ، ويذهب دوزى إلى أن الثائرين اجتمعوا وانتخبوا من بينهم إماماً دون أن يذكر مرجعه في هذا

(١) ايزودور ، فقرة ٧٦

(٢) Dozy, Mus. d'Esp. I. p. 161.

(٣) الاخبار المجموعة ، ص ٣٩

القول^(١). ولكننا وجدنا في « فتح الأندلس » إشارة موجزة إلى وجود زعيم بربري يسميه « زقطرتق » كان يرأس جماعة البربر التي كانت متوجهة إلى الجزيرة الخضراء والتي تجمعت في شدونه ، فلا يستبعد أن يكون هذا في الواقع رسماً محرفاً لاسم هذا البربري الذي قاد بربر الأندلس في الثورة كما قاد ميسرة بربر افريقية^(٢) .

تخرج مركز عرب الأندلس اذن ، ووجد عبد الملك بن قطن ومن معه من الكلية اليمنية أنهم لن يستطيعوا الثبات للبربر الا اذا وصلتهم من المشرق امدادات . ولم يكن ذلك ميسوراً لأن ثورة البربر في افريقية كانت على أشدها ، ثم انهم كلبيون يمنيون وكان اليوم يوم القيسية المضربة .

وكان بلج ومن معه من الشامية القيسية محصورين
عبر بلج بن بشر ومن معه
من القيسية الى الأندلس
في سبئة منذ عام ، وقد أجهدهم الحصار حتى أكلوا
الدواب والجلود وأشرفوا على الهلاك^(٣) وكانوا

لا يكفون عن الكتابة الى عبد الملك يستصرخونه ويستغيثون به ، فلم يسمع الى استغاثتهم ، لأنه كان يخشاهم على نفسه ، فهم قيسية شامية متعصبون وهو ومن معه كلبيون يمنيون ، فتركهم لكي يهلكوا حيث هم^(٤) ، وكان عبد الرحمن ابن حبيب ، قد نجا من معركة الأشراف — كبير عرب افريقية الذي تحدثنا عنه — وانهمز مع بلج وأصحابه الى سبته ، ومن هناك عبر الى عبد الملك بن قطن الفهري مثله ، وجعل يحرضه على بلج وأصحابه ويخوفه منهم ، فزاده ذلك اصراراً على تركهم لمصيرهم^(٥) . وبلغ من اسرافه في ذلك أن عربياً أندلسياً من لحم يقال له

(١) يقول صاحب الاخبار المجموعة في ص ٣٩ : « وكانت قد رأست البربر بالاندلس على أنفسهم ابن هدين » ؛ ولم نستطع قراءة هذا الاسم ، وظاهر أن المؤلف يريد أن يقول ان البربر اختارته رئيساً فقط لا اماماً ، والفرق بين الامرين ظاهر ، اذ أن نص ابن القوطية يفهم منه أن الحركة سياسية ، أما كلام دوزي فيفهم منه أن الثورة كانت دينية أيضاً ، وانظر أيضاً : ابن حيان ، عند المقرئ ، فتح الطيب ، ج ٢ ص ١١

(٢) فتح الاندلس ، ص ٣١ ، وهذه هي قراءة ناشر الكتاب ، ولم استطع تحقيقها .

(٣) الاخبار المجموعة ، ص ٣٧

(٤) نفس المصدر والصفحة ، وفتح الاندلس ، ص ٣١

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٠

عبد الرحمن بن زياد الأحرم أشفق عليهم من التلف ، فبعث اليهم مراكيب وشحنهما بالشعير والأدام ، فبلغ ذلك عبد الملك فغضب عليه وعاقبه أشد عقاب^(١) وساءت حال بلج وأصحابه . ولو لم يكن الربيع قد أقبل وأنبئت الأرض بعض الحضرة والبقل لها كوا^(٢) ، ولكنهم اقتاتوا بذلك واستعانوا به على البقاء حتى واتهم الظروف بالفرج من حيث لم يحتسبوا .

وزاد مر كز عبد الملك وعرب الأندلس حرجاً مع الأيام ، ولم يجد عبد الملك لنفسه مخرجاً الا أن يأذن لهؤلاء القيسيين المحصورين في سبتة في العبور الى الأندلس ، فأجابهم الى طلبهم بعد طول عناد ، واشترط عليهم أن يبارحوا الأندلس بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة ، واشترطوا عليه بدورهم أن لا يفرقهم وأن يعيدهم الى أفريقية جماعة واحدة ، وينزلهم في مكان يستطيعون منه العودة الى المشرق . وتم الاتفاق على ذلك . وأرسل اليهم عبد الملك سفناً عبروا بها الى الأندلس سنة ١٢٣هـ / ٧٤١ بعد أن أعطت كل فرقة منهم عشرة من رجالها رهائن احتفظ بهم عبد الملك في جزيرة أم حكيم في مدخل الوادي الكبير^(٣) .

هكذا عبر بلج بن بشر القيسي ومن معه من القيسية الشامية طائفة بلج الى الأندلس ، ولم يكن عددهم ليزيد على عشرة آلاف ، ولكنهم كانوا من غير شك نخبة من خيرة فرسان الشامية القيسية . لقد أساء رئيساهم كلثوم وبلج استعمالهم حتى هذه اللحظة وسير تكون من الأخطاء فيما بعد شيئاً جسيماً ، ولكنهم امتازوا بشجاعة عظيمة وذكاء بعيد ، وسينتهي بهم الأمر بالاستقرار في البلاد ، وسيكون لهم في تطور الأندلس الاسلامي أحسن الأثر حينما تستقر الأمور وتقوم الدولة الأموية .

ترك بلج وأصحابه الأندلس في حال من الجوع لا مزيد عليها ، وكانت ملابسهم قد بليت حتى كانوا يستترون بالدروع ، ونزلوا الجزيرة الخضراء ، « فوجدوا بها جلوداً مدبوغة كثيرة ، ففقطعوا منها المدايع ، ثم أقبلوا الى قرطبة ،

(١) الاخبار المجموعة ص ٣٨ — ابن خلدون ، عند المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١

(٢) الاخبار المجموعة ، ص ٣٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٨ — ٣٩ — فتح الاندلس ، ص ٣١

فكسا ابن قطن خيارهم وأعطاهم كلهم عطاء . فلم يكن فيه ما يفنيهم ، واستقبلهم عرب بلد الأندلس وهم ملوك ، فكسا كل رجل منهم من خيارهم خيار عشيرته ، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبهوا^(١) . وهكذا آوى عرب الأندلس رجال هذه الطائفة القليلة من القيسية بعد أن تفاذقتهم البلاد والنشوب منذ مبارحتهم مواطنهم الأولى في الشام منذ قرابة العامين . ولا نزاع في أن القيسية الأندلسية قد أحسنت استقبالهم واکرامهم على النحو الذي يصفه صاحب الأخبار المجموعة طمعاً في أن تقوى بهم قلوبها . ومن ثم ليس بغريب أن نرى قيسية الأندلس تنهض لمنازلة الكلبية اليمنية من جديد .

ولم يكند بلج وأصحابه يريحون بقرطبة حتى
 نهضوا للعمل الذي أتوا من أجله وهو لقاء
 البربر والقضاء على ثورتهم . كان أول ما ينبغي
 طاعة بلج تقضى على نورة
 البربر في الأندلس

عمله هو القضاء على الجيش البربري الذي كان متجهماً نحو الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر الثائرين في ناحية طنجة وسبته ويقطع كل أمل لعرب الأندلس في أى عون يأتهم من المشرق ، ويبدو أن هذا الجيش البربري كان أقوى جيوشهم الثلاثة وأكثرها نظاماً ، وكان قد وصل كما رأينا إذ ذاك الى شدونة وعسكر عندها .

نهض بلج وأصحابه للقاء هؤلاء ، وانضم اليه نفر من عرب الأندلس البلديين ما بين قيسية ويمنية ، والتقى الجمعان على مقربة من شدونه « فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم ، فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا وأصابوا المغانم^(٢) » ولا نزاع في أن العرب كانوا مدفوعين في هذه المعركة بالرغبة في طلب الثأر من هؤلاء البربر الذين أذاقوهم الويل في افريقية والأندلس طوال الحقبة الماضية . ثم نهض بلج وعبد الملك ابن قطن ومن معهما للقاء الجيش البربري الذي كان متيحها نحو قرطبة ، ولم يجدوا عناء كبيراً في هزيمته والقضاء عليه .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩

(٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ص ٣١

فأما الكتلة البربرية الثالثة التي كانت تحاصر طليطلة فيبدو أن أمرها كان أخطر من الكتلتين الآخرين بسبب الأعداد العظيمة التي تجمعت فيها . كانت جماعات بربرية غفيرة من بربر جليقية وأسترقه ومارده وقوريه وطميره قد انجفلت من بلادها وانضمت إليها ، وأقبلت فحاصرت طليطلة ، وأقامت على الحصار أشهراً حتى اشتد الأمر بطليطلة وأهلها ، وكان بعض هذه الجماعات البربرية قد عبر التاجه وانحدر نحو الجنوب ، وحاول عبد الملك بن قطن أن يناجزها الحرب فلم يفلح ، فلما تم له القضاء على الجيشين البربريين الآخرين على يد الشامية جمع رجاله وسار مع الشاميين للقاء البربر على مقربة من طليطلة ، فلما تسامع هؤلاء بمسيره اليهم حلقوا رؤوسهم اقتداء بميسرة ، « ولايكي لا يخفى أمرهم وليضربوا ولايختلطوا ^(١) » مما يدل على شدة حماسهم ورغبتهم في النصر .

دارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادي سليط معركة وادي سليط
(Guazaleta) وحمل أوارها ، لأن قلوب الجانبين كانت تفيض سخطاً ، وأظهر الشاميون من الشجاعة والقدرة ما استطاعوا به القضاء على هذه الجموع البربرية والانتصار عليها ، « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش في الاندلس فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم ^(٢) » (منتصف ٧٤١ م أوائل ١٢٤ هـ) .
وبفهم من هذه العبارة الأخيرة أن العرب بعد أن انتصروا على البربر هذا الانتصار الحاسم عند وادي سليط تعقبوهم في نواحي الجزيرة واشتدوا في ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم كثيراً .

(١) الاخبار المجموعة ، ص ٤٠

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ . ووادي سايط نهر يصب في التاجه من اليسار جنوبي طليطلة بقليل . وقد أشار الرازي في قطعة باقية من الترجمة الاسانية لتاريخه الى هذه الموقعة بقوله :
"et esta botalla fué en el termino de Toledo sobre el rio Calican .
انظر الفقرة ٢٤ من ٨٨ في نهاية عمود ٢ من طبعة جايانجوس . ولم يستطع الناشر تحقيق نهر كاليكان هذا .

شغل العرب والبربر بهذه الحروب عن عمارة الأندلس ،
وكانت جموع كثيرة من هؤلاء البربر وأعداد قليلة
المجاعة وهجرة البربر الى أفريقية

من العرب قد اشتغلت بفلاحة الأرض واستقرت فيها
منذ سنوات الفتح الأولى ، وكان نفر آخر من العرب قد استقروا في عواصم
الأرياف والقرى التي غنموها واشتغلوا بالاشراف على المزارعين من أهل البلاد ،
فكان اشرافهم هذا من العوامل التي أسرعت بهار الأرض بعد انتهاء فترة
الفتح وما دار خلالها من حروب . فلما اشتغل العرب بالحروب فيما بينهم ،
وغادر العرب مواقعهم ، واشتبكت الحرب العنيفة بينهم وبين البربر وانتصروا
عليهم واشتدوا في الانتقام منهم ، خاف من بقي من البربر واضطرب في مساكنه ،
وبدأت الرغبة تساورهم في ترك هذه البلاد — التي كانوا يقيمون فيها على الخطر —
الى بلادهم الأولى حيث يكونون أكثر اطمئنانا . فانصرف معظم هؤلاء البربر
عن الزراعة وأخذوا يهجرون الأرض ، وكان العرب قد فعلوا ذلك قبلهم ،
وهكذا أخذت المزارع والقرى تخلو من سكانها من العرب والبربر ، وأخذ الخير
يقل في البلاد ، وتوالى ذلك سنوات فازدادت الحال سوءاً . ولم ينتبه العرب
إلى ذلك لاشتغالهم بحروبهم مع البربر ومنازعاتهم بين أنفسهم ، فانهى الأمر
بعد سنوات قلائل إلى مجاعة كبيرة لقلّة المحاصيل ، وانضاف شر هذا البلاء
الجديد إلى شر الحرب القائمة والقوضى السائدة وقلة الأمان ، فانهدمت الزروع
وندرت المحاصيل ولاح شبح مجاعة خطيرة ظهرت بشكل حاد بعد أن انهزم
البربر هزيمتهم النهائية عند وادى سليط . فلم تكد عشرة أعوام تنقضى على ذلك
حتى قحطت البلاد وانتابتها مجاعة عامة شديدة يتحدث عنها صاحب الأخبار
المجموعة بقوله : « حتى كانت فتنة أبى الخطار وثواه ، فلما كانت سنة
ثلاث وثلاثين (٧٤٨م) هزمهم (أى بلاى زعيم الأسبان) وأخرج (يريد أخرجهم
أى العرب) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذهب في دينه وضعف عن الخراج ،
وقتل من قتل ، وصار فلهم الى خلف الجبل إلى أستورقة ، حتى استحكم الجوع
فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها ، وانضم الناس الى ما وراء
الدرب الآخر والى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ،

نفرج أهل الأندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومترجلين ، وكانت إجازتهم من وادى بكورة شذونة يقال له وادى رباط ، فتلك السنون تسمى « سنى رباط » ، نخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم ^(١) .

واشدت المحنة وأصابت نواحي الأندلس كلها عدا اقليم سرقسطة الذى نجا منها بفضل مياهه وأنهاره وبفضل الجماعة العربية الكبيرة التى استقرت فيه . ويبدو أن المحنة كانت شديدة جداً ، لأن الكثيرين من العرب انجفلوا — كما رأينا — الى النواحي التى توقعوا أن يجدوا فيها خيراً ، وكان البربر أسوأ حالا ، لأن الهزائم فلت غربهم ، ولأن العرب تتبعوهم بالأذى فى كل ناحية حتى ضاقت البلاد بهم ، وأحسوا العداوة والشر فى الأندلس فأخذت جموع منهم تعود الى إفريقية ليطمئنوا بين أهلهم وعشائرتهم ، فهاجروا الى إفريقية أرسالا كثيرة .

لا نزاع فى أن عدد من هجر من البربر كان عظيما جدا ،
زحف نصارى الأسبان
نحو الجنوب
لأن المؤرخين يحدوثونا أن نواحي شمال الأندلس
وغربه كادت تخلو من أهلها المسلمين ، فاذا أضفنا
إلى ذلك أعداد من هلك من السكان — عربا وبربرا — بسبب المجاعة ،
ومن انجفل منهم الى الجنوب وإلى الغرب وإلى اقليم سرقسطة ، استطعنا أن
نعرف السبب فيما حدث من اتساع دولة النصارى الأسبان فى جليقية وأشتريس
اتساعا مفاجئاً بلغت به ضعف حجمها الأول بين سنى ٧٥١ و ٧٥٣
(١٣٤ — ١٣٦ هـ) : ذلك أن الاقليم الواسع الواقع بين نهري المنه واللتاجه
خلا من سكانه المسلمين فى ذلك الحين ، فاستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا
ما استطاعوا من هذه المساحة من غير جهد ، وكان يقودهم ملكهم ألفونسو
الأول ، فاسترجع النصارى إفراغه وأبورتو وفزيو ^(٢) ، وبذلك سيطروا

(١) الاخبار المجموعة ص ٦٢

(٢) ظن بعض المؤرخين أن الصيغة العربية لفزيو Viset هي بازو الواردة فى المقرئ
ولكن سافدرا أثبت خطأ ذلك (انظر المقرئ ، فتح الطيب ، ج ١ ص ١٧٤) .

SAAVEDRA, *Estudio sobre la invasión de los Árabes en España*
(Madrid, 1882) p. 182.

على شمال الأندلس حتى الدويرو ، ثم تقدموا بعد ذلك في حذر فاستولوا على أشرقه وليون وسحورة ولدسماوسلمته وقورية . بل تذهب المراجع النصرانية إلى أنهم استرجعوا ماردة نفسها ، وتوسعوا نحو الشرق فاحتلوا سادانيا وسيانقاس وشقوبية وأفيله وأوكا وأوسما وميراندا على نهر إئره وسنيسبرو وأليسانكو على هيرريوخه . وانحدرت حدود الأندلس الاسلامي الى الخط الممتد من قلمرية على المنديجو الى قورية وطليبرة وطليطلة على التاجه الى وادى الحجارة وتطليلة وبنبلونة في الشمال الشرقي . وهذا خسر المسلمون نحو ثلث مائتجوه من الأندلس بسبب هذه الحصومات القبلية من ناحية وبسبب المنازعات بين العرب والبربر من ناحية أخرى ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مستقبل الاسلام في الأندلس^(١) . ولم تقف نتائج هذه الثورة المشؤمة عند ذلك

الخصومة بين العرب والبربر الحد ، بل إنها خلفت في نفوس العرب والبربر من الكراهية ماسيظل قائماً قرونًا متوالية لانكاد الأيام تمحوه . كانت هذه الحرب الضروس حرب فناء بين الجانبين ، فلما انهزم البربر في إفريقية والأندلس ظلوا طوال القرون التالية يحسون الخوف من العرب والكراهية لهم ، وقد انتهى الأمر بعد قرابة ثلاثة قرون بانتصار البربر في إفريقية واختفاء العرب من أفقها سادة وموجهين . وأما في الأندلس فلم يقهر أحد من الجانبين الآخر ، لأن عودة الهجرة البربرية إلى الأندلس بعد قيام الأمانة الاموية قوّى جانب البربر من جديد وأعادهم إلى المقاومة ، فتقوت مراكزهم وأخذوا يناوئون العرب والأندلسيين مرة أخرى ، وسنرى ذلك بصورة واضحة أثناء الأزمة الكبيرة الأولى التي دامت طوال إمارات محمد والمنذر وعبد الله ، وسنرى أثر هذه الخصومة واضحاً بشكل خطر حاسم بعد سقوط الخلافة الأموية ، بل ستكون هذه العداوة بين العرب والبربر من أسباب سقوط الخلافة نفسها .

(١) انظر : BALLESTEROS : *Historia de España y su influencia en la historia Universal*, II, pp. 325 sqq. Dozy, *Recherches*, I. pp. 116 sqq.

يقول الرازي تعقيباً على هذه الحوادث التي ذكرناها : « ومن هذا وأشباهه قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس ، وتوارثها الأبناء إلى يوم البعث ، فبالعرب غزوا في بلادهم وببأسهم سبيت ذرايرهم وغنمت أموالهم حتى أدخلوا في الاسلام واضطروا اليه قهراً . قال : فلما رجع أكثر العرب إلى بلادهم (في) المشرق ، واستقر منهم الأفل (في) الأندلس ممن أراد الجهاد ورغب فيه ، وكان البربر يومئذ أكثر منهم فيها لمجاورتهم بلادهم ، لم تزل عداوة الأديان والغلبة تتجدد بينهم ^(١) » وسنجد الحوادث تؤيد قائلته تلك في كل دور من أدوار تاريخ الأندلس .



هكذا أسدل الستار على هذه الثورة البربرية الكبرى التي شملت كل ناحية تجاور فيها العرب والبربر من حدود مصر إلى جليقية وحدود البرانس . انتهت بعد أن بددت من النفوس كل أمل في امكان الامتزاج التام بين العرب والبربر في افريقية وتكوين شعب واحد قوى منهم ، وبعد أن أصابت الأندلس الاسلامي في مقتل . فقد كان من الممكن قبل هذه الثورة أن يستمر المسلمون في مغازاة مالم يغزوه بعد من أنحاء الأندلس حتى يستولوا على شبه الجزيرة كلها ، بفضل جموع البربر المهاجرة . أما الآن ، وقد عادت هذه الجموع البربرية إلى بلادها ، وبعد أن هلك منها بسيوف العرب من هلك ، وبعد أن امتلأت النفوس عداوة وسخطا ، فلم يعد من الميسور تعمير شبه الجزيرة كله بالمسلمين . وانقسخ أمام الأسبان النصرارى مجال النمو ، وتجددت آمالهم في استعادة البلاد . وليس يخفى على أحد أن الأندلس الاسلامي إنما أتى من الشمال والغرب — حيث هاجر البربر — ولم يؤت من الشمال الشرقي حيث ظلت جماعات العرب والبربر مقيمة في اقليم سر قسطة .

(١) روى ذلك صاحب فتح الاندلس ، ص ٣٢

مراجع عربية

- ابن الأبار ، الحلة السراء ، مقتطفات نشرها دوزى فى كتاب
 Notices sur quelques manuscrits arabes, Leyden, 1847-1851,
 pp. 30-260.
- ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، طبعة القاهرة ، الجزء الخامس .
- ابن بسام ، كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (طبعة جامعة فؤاد الأول) ج ١
 سنة ١٩٣٩ ، ج ٢ سنة ١٩٤٠
- ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٨٣
- ابن حيان ، كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، الجزء الصغير الذى طبعه
 ملكور أفتونيا ، باريس ١٩٣٧
- ابن الخطيب ، كتاب الاحاطة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٤٧ هـ
- ابن خلدون ، المعبر ، طبعة دى سلين سنة ١٨٤٧ — ١٨٥١ م .
- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة G. Torrey ،
 ييل ١٩٢٢
- ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، طبعة دوزى ، ليدن
 ١٨٤٨ — ١٨٥١
- ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٢
- ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة جابانجوس وسافدرا وكوديرا ،
 مدريد سنة ١٨٦٨
- الأخبار المجموعة ، مجهول المؤلف ؛ نشره لافونتي اى الكاترا وترجه الى
 الاسبانية باسم *Crónica anónima del siglo XI* ، مدريد ١٨٦٧
- فتح الأندلس ، مجهول المؤلف أيضاً ، وعنوانه الكامل : « كتاب فيه سبب ذكر
 فتح الأندلس وامراتها . نشره JOAQUIN DE GONZÁLEZ وترجه الى الاسبانية
 تحت عنوان : *Historia de la Conquista de España ; codice arábigo* :
 del siglo XII ، مدريد سنة ١٨٨٩
- المقرئ ، فتح الطيب ، طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت ، ليدن ١٨٥٥ — ١٨٦١
- النويرى ، نهاية الأرب ، الجزء ٢٢ الخاص بتاريخ افريقية ، الجزء ٢١ الخاص بتاريخ
 الأندلس ، نشرها وعلق عليهما وترجمهما الى الاسبانية Mariano Gaspar Rimerio
 مدريد سنة ١٩١٧
- الرسالة الشريفة الى الاقطار الاندلسية . فقرة من تاريخ الاندلس مجهولة الاصل
 والمؤلف نشرها ريبيرا كذيل لافتتاح الاندلس لابن القوطية .

مراجع أوروبية

BALLESTEROS, ANTONIO Y BARRETA : *Historia de España y su influencia en la Historia Universal*. Barcelona 1920 Vol. II.

DOZY, *Histoire des musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides*, éd. E LÉVI-PROVENÇAL, Leyde 1932 vol. I.

DOZY, *Recherches sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne pendant le moyen-âge*, 3^e éd. Leyde 1881. vol. I.

FOURNEL, HENRI, *Etude sur la Conquête de l'Afrique par les arabes*. 2 vols. Paris 1875.

GAUTIER, E. F. : *Le Passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs*. Paris 1937.

GONGÁLEZ PALENCIA, *Historia de la España Musulmana*, Barcelona, Buenos-Aires, 32 éd. 1932.

JULIEN, CH-ANDRÉ, *Histoire de l'Afrique du Nord*. Paris, 1931.

LA FUENTE Y ALCÀNTARA, *Cronología de los Gobernadores de España*.

وهو ملحق لترجمته للاخبار المجموعة المذكورة آنفا ، ص ٢٤٠ — ٢٤٢

E. LÉVI-PROVENÇAL : *Histoire de l'Espagne Musulmane*, t. I. Le Caire 1944.

RASIS : *La Crónica del Moro Raris* :

وهو جزء من الترجمة الأسبانية القديمة لتاريخ أحمد الرازي نشرها مع مقدمة عن الرازي وتاريخه PASCUAL DE GAYANGOS وصدرت في الجزء الثامن من منشورات الجمع الاسباني الملكي للتاريخ *Memorias de la Real Academia de la Historia*. Madrid 1852.

SAAVEDRA, EDUARDO *Estudio sobre la invasion de los árabes en España*, Madrid, 1892.

SIMONET, *Historia de los mozárbes de España*, Madrid 1897-1903.

WÜSTEN FELD, F. : *Die Statthalter von Aegypten zur zeit der Chalifen*. Erste Abteilung 1875.

في المجلد العشرين من

Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen.

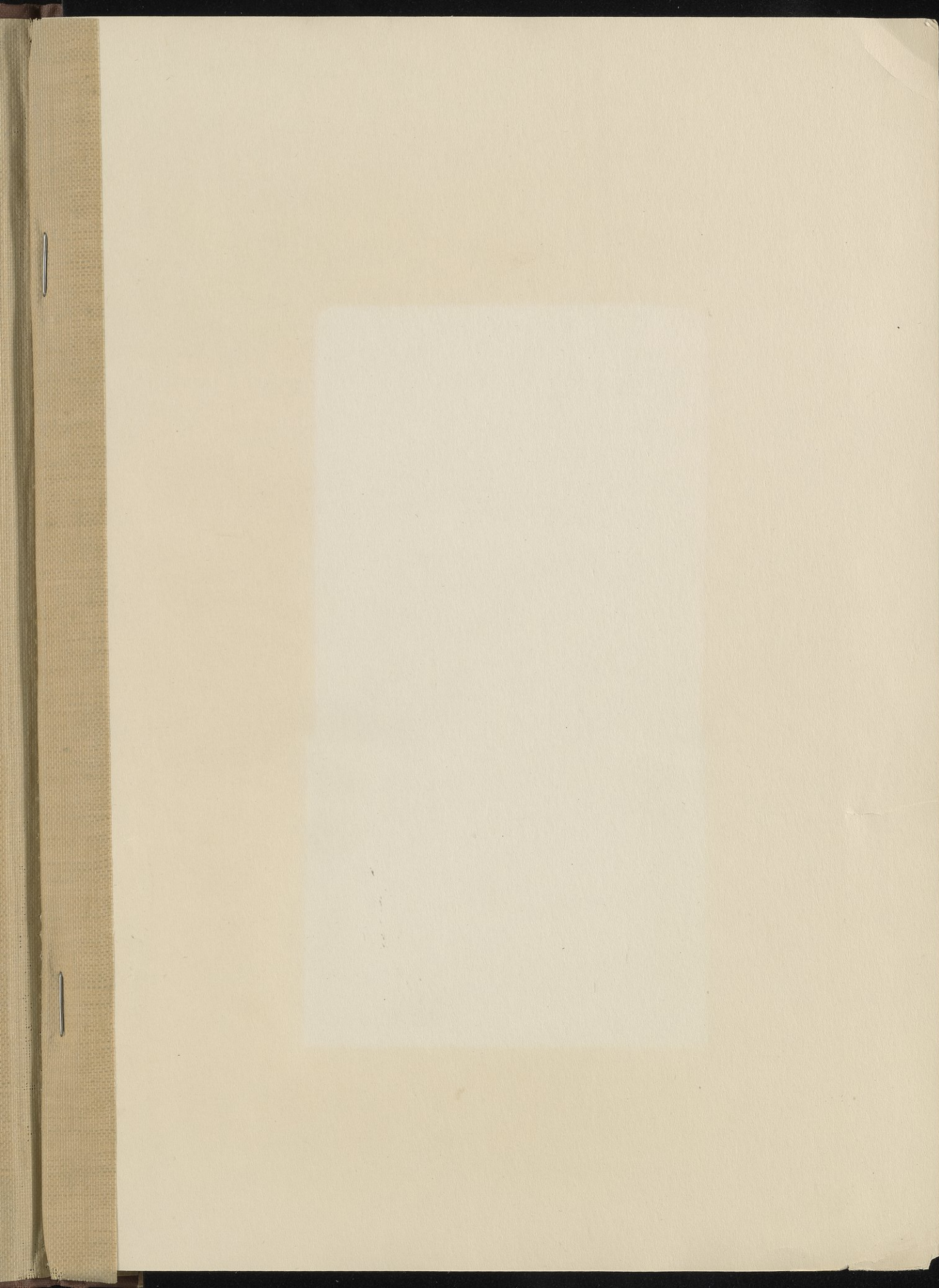
تم طبع هذه المجلة في عهد حضرة صاحب الجلالة
الملك "فاروق الأول" بمطبعة جامعة فؤاد الأول
في ١٨ رمضان سنة ١٣٦٧

محمد زكي خليل
مدير مطبعة جامعة فؤاد الأول

(مطبعة جامعة قوادالاول ١٩٤٧-٦٠٧-٥٠٠)

A57





893.716
M925

BOUL

JAN 9 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58875913

893.716 M925

Thawrat al-barbar fi

893.716—M925